


عائشة تيمور
شاعرة الطليعة

مكي زياده

عائشة تيمور

شاعرة الطليعة

 مؤسسة نوفل
بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناس
الطبعة الثانية
١٩٨٣م - ١٤٠٣هـ

© مؤسسة نوفل ش.م.م.

بيروت - شارع المعتماري - بناية نوفل - ص.ب. ٢١٦١ - ١١
تليفون : ٢٥٤٨٩٨ - ٢٥٤٢٩٤ - تلکس : نوشت : ٢٢٢١٠ لبيانات

مقدمة

الشاعرة عائشة عصمت تيمور هي بنت اسماعيل باشا تيمور . ولدت سنة ١٨٤٠ م بمدينة القاهرة . بدأت حياتها تميل إلى تعلم القراءة والكتابة . وقد آنس منها والدها هذا الميل ، فأحضر لها اثنين من الأساتذة أحدهما يعلمها الخط والقرآن والفقه ، والآخر يعلمها الصرف والنحو واللغة الفارسية . وبعد ما أتمت حفظ القرآن الكريم تآقت نفسها إلى مطالعة الكتب الأدبية ، وفي مقدمتها الدواوين الشعرية ، حتى تربت عندها ملكة الأدب . تزوجت من السيد محمد توفيق زاده ، وكان ذلك في سنة ١٨٥٤ م وعمرها أربعة عشر عاماً ، فتفرغت للشؤون الزوجية ، ثم تآقت نفسها إلى الأدب والعلم ، فاستحضرت سيدتين لهما إلمام بالنحو والصرف والعروض ، فأخذت عنهما حتى برعت وأتقنت نظم الشعر .

تعلمت اللغة التركية ، التي أخذتها عن والدتها ووالدها ، ووضعت في الشعر ثلاثة دواوين باللغات العربية والتركية والفارسية ، وألفت في النثر كتابين هما : « نتائج الأحوال » و« مرآة التأمل في الأمور » وستقرأ عن هذين الكتابين للآنسة مي في هذا الكتاب . توفيت السيدة عائشة تيمور في ٢ أيار السنة ١٩٠٢ وهي في سن الثانية والستين .

to: www.al-mostafa.com

to: www.al-mostafa.com

الفصل الأول

البارق في الظلام

دعيتني جمعية « مصر الفتاة » دعوة كريمة إلى القاء محاضرة على أعضائها في الجامعة المصرية . فوعدت . وخطر لي أن خير موضوع أتخذه هو شخصية نسائية غنية ندرسها معاً . فتعرض لنا في سياق البحث موضوعات جمّة في الأخلاق والأدب والاجتماع نحصها قدر المستطاع ، بينا نحن نرسم من المرأة صورة شيقة . فنسجل للحركة النسائية في هذه البلاد مفخرة أخرى تثير فينا الرغبات ، ونستمد من وحيها المثل والمعونة والفائدة جميعاً .

وما خطر لي ذلك إلا وصحبه اسم شجي يحيا دواماً بزفراته الحارة المنغومة . زفرات تناقلتها الأصداء يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية خطأ جميلاً حين كانت صورة المرأة سديماً محجوباً وراء جدران المنازل وتكتم الاستئثار .

برغم ذلك أنشأت انقب في تاريخ المرأة المصرية . وكنت كلما دققت نمت « التيمورية » في ذهني وتفردت صورتها أمامي اذ لم يقم على مقربة منها صورة تسابقها أو تشبهها ولو شهاً بعيداً . ونظرت إلي بعينها المجهولتين الممدتين باثة حسرتها ، باكية شجوها ، مهممة لي في خلوتي أبياتاً كثر أمثالها في ديوانها « حلية الطراز » حيث تقول :

حيي الرفاق وصف للحي أشواق
وحدث الركب عن تسكاب آماقي

قد جرعتني صروف الدهر مرتفعاً
لواعجا كحميم أو كفساق

أسال حر الهوى قلبي وأبـرزـه
جفني على يد آماقي وأحـدـاقـي

هذا شواظ الهوى في القلب ملتهب
وفي التنفس من آثار أحـرقـاقـي

فطالعت كل ما عثرت عليه من آثارها ، وجمعت من المعلومات عنها
ما تيسر ، وفكرت في نشر بحوث عنها . وكان يدفعني إلى ذلك :
أولاً - ان لعائشة فضل المتقدم بيننا وهي طليعة اليقظة النسوية في هذه
البلاد .

ثانياً - إن الجمهور يعرف أنها « شاعرة » دون أن يلم بما تتكون منه
شاعريتها ، ودون أن يقف على حال من أحوال حياتها أو يحلل ميلاً من ميولها .

ثالثاً - ان النظرة في مقدرتها إنما هي اكتناه للذات المصرية ليس من
الجانب النسوي بل بوجه عام . وسنرى بعد التحليل أن لعائشة مكانتها بين
أدباء عصرها وليس بين الأدبيات الشرقيات وحدهن .

رابعاً - انها من عمال دولة القلم عاشت في وحدتها كثيراً ، وأعطتنا
في شعرها ونثرها صورة مؤثرة . أما رأيها في الحياة فحقيق بالانتباه والتبصر
لأنه رأي جمهور كبير من الشرقيين والشرقيات كان شائعاً في زمانها وليس
بالنادر في أيامنا هذه .

خامساً - ان مثل هذا البحث يرافقه سرور متضاعف . أليس أن جميع
طبقات الناس تلذ لها الروايات ، وهي إنما تمثل حياة أشخاص وهميين ؟
فكيف بحياة أشخاص عاشوا قبلنا وعانوا صامتين كل ما يعانيه أبطال الروايات ،
هم الذين توفرت لديهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منا في سبات

واستكانة ! وكم من نابه قضى تاركاً آثاره فاكتفينا بالثناء عليها وعليه ثناء
النائحات على كل ميت ، فظلمناه في مماته بعد أن كان مظلوماً في حياته !
فلم نستجل من آرائه رأياً ولم نحلل من العوامل التي كونه عاملاً .

كلا ، لم نحلل بعد رأياً ولم نستجل عاملاً لأننا ما زلنا في هذا الفن الجليل
أطفالاً . نظرة إلى ما يكتب عن ثمرات المطابع عندنا ترينا (مع استثناء
صغير) إننا نقابل الكتب الجيدة بأحد الأنواع الثلاثة التالية .

الأول - أن نغفل ذكرها اغفلاً حتى وإن كانت عنواناً قيماً ليقظتنا
الفكرية ، وخطوة واسعة تستدعي الإعجاب والاعتباط . ولا يبرر هذا
الإغفال حتى ولا الاعتذار بأن الجمهور يتطلب الآن موضوعات معينة
لا يرضيه سواها . لأن هذا الجمهور المتهم هو الذي يبتاعها ويستهلك
طبعتها . فكيف يجد متسعاً من الوقت لمطالعة كتاب بكليته ويضيق وقته
وصبره دون قراءة سطر عنه ؟

النوع الثاني - هو إما مرقه دهنية لرجة مزجت فيها مواد الثناء والمدح
والإطراء يطل بها ذكر الكتاب دع عنك كونه صائباً أو غير صائب . وأما
تقريظ بالاستعارات المألوفة التي لم تعد تعني شيئاً يختم (كما تختم جميع
الصلوات بآمين) بكلمات لا مفر منها مثل « حث الجمهور على اقتناء هذا
السفر النفيس » أو « التمني أن يصادف هذا الكتاب الشيق النافع ما يستحقه من
الرواج والانتشار » .

أما النوع الثالث الذي أرادوا أن يطلقوا عليه اسم « النقد الحديث »
فهو نقيض « التقريظ » العتيق . ويفكهنى أن أنخيل أحياناً أن جميع اصطلاحات
الثناء والإطراء « أضربت عن العمل » هي الأخرى لحين ما فتكأكأت
في مكان واحد متماسكة متجمدة ، ففاجأتها قنبلة تائهة فافرنقعت متطائرة
أشظاظاً ملتهبة تقمصت بفضل بعض النقدة « العصريين » قدفاً وطعنأ وتهجماً .
ومما يؤسف له أن من هؤلاء النقدة من هو ذو مقدرة كبيرة ، لو هو أنال

مقدرته كل موهبة من الثقيف والصقل والملاينة والكياسة الفنية ، فتذكر أن نقده ليس بالبلاغ العسكري يعلن الأحكام العرفية ، ولا هو بالمنشور الاسقفي يحرم عضواً من شركة المؤمنين وشفاعة القديسين ، ولا هو بأمر « المعلم » القروي (على الطراز القديم) غضب على تلميذ مسكين لم يحفظ أمثولته كما ينبغي فحظر عليه أن يأكل ، أو يشرب ، أو يتحرك ، أو يتنفس بغير سماحه . كلا . ليس النقد بشيء من ذلك . إن هو إلا نظرة فرد معرض للخطأ في عمل فرد آخر معرض للخطأ يختلف عنه ميولاً وتأثيرات وكفاءة ووراثه . وإذا كان الأدب واجباً في الخطاب الشفهي ، فهو في الخطاب الكتابي أوجب . وأول مظاهر الأدب هو التهييب أمام شخصيات الناس لكونها شخصيات انسانية فحسب ، فكيف بها إذا هي بذلت مجهوداً ما ، وكانت ذات ميزة علمية ، أو فنية وأخلاقية ؟

إن ألزم مميزات الناقد هي العطف . لست أعني العطف بمعنى الاغضاء والتساهل واعتبار العيوب والنقائص حسنات وكمالات . وإنما أعني عكس التحامل والتعنت لينهاً له التجرد من ذاتيته تجرداً موقوتاً يتسنى معه الدخول في حياة المنقود شاعراً معه ، متوجعاً لحاجته ، مراعيّاً عادات بيئته ومطالبها ، خاضعاً لجميع مؤثرات المحيط ، طالباً لحين غايته من الحياة . وإلا فكيف يدعي أنه فهم المنتقد عليه ؟ وإن لم يفهمه فكيف يكون رسوله إلينا ؟ كيف يجزأ امرؤ على تحويل حاجات الناس إلى حاجته ، وحصر عقلياتهم في عقليته ، وسجن قلوبهم في قلبه ، وقياس أحوال حياتهم بمقياس حياته ، ثم يأتيها بحكم يزعمه هو نهائياً بلا نقض ولا ابرام ؟ إلا أن ذاك هو الهاجي وليس بالناقد . هو المتصلب وليس بالفنان . هو الذي يتجاهل أن النقد لا يقوم بإظهار العيوب (وجميع الناس بارعون فيه) وإنما هو احكام التمييز والتعليل ، شأن المصور في توزيع الأنوار والأظلال على ما يجب أن تكون في اللوحة الواحدة .

أعلم أن بين نقدة الفرنجة كثيرين من المتحاملين ، ولكن ما يأتونه من

ضروب الطعن والنهش لم يقنعني بأن العصمة في جانبهم ، ولم أرَ في أحكامهم سوى رأيهم الخاص ليس إلا ... وهذه الصورة التي أرسم من التيمورية إنما هي نظرة فردية في طبيعتها ولا زعم لي إنها صورة مطلقة . وأتمنى أن تتنبه الرغبة في معرفتها في نفس كل من شاء مسيرتي فيدرسها معي متصفحاً روحها ، راسماً لذاته صورة منها خصيصة . فإن الحرية الفكرية هي ما ننعّم به والله الحمد . وبها سيبقى الإنسان كبيراً نبيلاً وإن كان في سواها عبداً ذليلاً .



وقد أحصيت الأسباب العمومية لدرس الشاعرة ، ولكن لدي سبباً آخر ، وهو مقابلة معنوية جرت لي معها منذ حدثتي القصوى .

كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحي متجلياً ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السري . ونصب صوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة . فما يحجم الظلام إلا وتعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضاعة بتألق الأنوار ومعالم الزينات ، الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها .

إذ ذاك يهرع أهل الحي إلى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون إلى آهات الطرب الشائعة في الفضاء حتى لتهاذى أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل . والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافئ ويحميهم من أهوال الظلام ، فتتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الألحان .

كنت على ذلك في ليلة فإذا بصوت ينشد على نقرة العود :

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن
جفن من السحر أم سحر من الأجفان

خال بخديك أم صنع من الديسان
توّهت فكر الأنام في الجفن. والخالات^(١)

تبارك الله ما أحلاك من إنسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسى كما كانت صغيرة وقتئذ بل بكل قواي
الكامنة التي سينميا المستقبل وبكل ما في الأيام التي عشتها وسأعيشها من أمل
ويأس وسعادة وشقاء. ولعلي استشعرت ببعض ما سأفهمه بعدئذ من نجوى
الموسيقى الشرقية... تقول أن الإنسان يجهل كيف ولماذا وُلد، ولكنه
يعلم أنه يحتاج إلى السعادة التي لم يفز بعد منها سوى بفتيت موهوم. تقول
للطفل والشاب إنهما أكبر سنًا مما يظنان، وتقول للقوي الظافر إنه ضعيف
مدحور، وتقول لكل أحد إن حياته كانت إلى هذه الساعة خالية سخيفة
قحطاء. تقول له إن في الدنيا أموراً لم يختبرها وإن جهله لها فقر وضنك
وذل وعبودية وموت سبق الموت. تقول إن الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج
لأن العمر قصير سريع العطب، وإن كل لحظة يجب أن «تعاش» بأكملها
ليستخرج منها أقصى ما تكن. تقول إن القلب روي بالعبرات ينتظر اليد
القادرة تضرب عليه ليتفجر كصخرة موسى... وإذ تنطلق الأصوات
سابحة كالأجنحة في فردوس من الألحان، ثم تصبح متفجعة منتجة،
ثائرة، عاصفة تلج وتتمادى يحيل أن الفرع قد جوف تحتها هاوية تترامى فيها
الأصداء المرتعشة. فتعكف النفس على حاجتها ووحدتها وحيرتها بين هذه
الهاوية وذلك الفردوس، وتطلب التوازن والراحة في سحر الحب وذوب
الحنان... ولكن العمر قصير سريع العطب، وكل ما فيه موسوم بوسمه...
ولكن الحياة مراوغة في استقامتها، شحيحة في كرمها، وكل ما فيها كريم
شحيح مراوغ مستقيم...

هذا بعض ما قاله لي فيما بعد شهيق الأوتار، فهل فهمت منه

(١) كذا في الأصل. أما أنا فأذكره كما كنت أسمعه «توهمت فكر الانام بالعين والحاجب».

عندئذ شيئاً؟ لا أدري . ولكن كم ذا انتقش الظلام بالمشاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب الذي لم يكن أحد يعلم ما إذا كان جمال عينيه كحلاً أم صبغاً من الرحمن ! ذاك الشخص الذي تاهت به أفكار الناس فتجمهرت لتهتف : تبارك الله ما أحلاك من انسان ! أنتصرون أثر هذا الرسم في مخيلة صغيرة شديدة التيقظ ، وفي نفس ليّنة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكي لمرور سحابة زاهية في الأفق الأزرق ؟



ولطالما سمعت هذا « الموال » بعدئذ من منشدين أصوليين وغواة يقبلون عليه اقبالهم على جميع الأدوار المصرية المشوقة . ولكن أكانوا يعلمون من هي شاعره ؟

أرجح أن تلك كانت نشوتي الموسيقى الأولى . فأبقت في أثرًا ، كأنما هو إشارة من روح التيمورية تنبهي . وما تبينت تلك الإشارة إلا عند مطالعة ديوانها والاهتداء إلى ذلك « الموال » فيه . فأدركت أنها حدثني منذ زمن بعيد تلك الروح التي غاصت نفثاتها الحزينة الطروبة في أرواح المنشدين فحبست على أوتارهم ألحاناً ، وانطلقت على أمواج الهواء فناً وتغريداً وإبداعاً . وهكذا تلك المرأة التي وقعت زفرائها في وحدة خدرها وراء الحجاب ، صار الشجن والطرب منها فعلاً تتناقله أجواء الأقطار وتتأثر به ليالي الأفراح في نازح الديار .

كذلك برقت التيمورية في تلك الظلمة وكان ذلك النور منها رمزاً لنور آخر خطير . ان عائشة عصمت ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل . فجاءت بارقاً يبشر المرأة المصرية ومستقبلها .

الفصل الثاني

عَصْرُ الشَّاعَةِ

الحياة الفكرية والاجتماعية

بزغ القرن الخامس عشر على ربوع الغرب فجرأ ما برح ينتشر ويعمم حتى شمل بنوره نهضة التجدد الكبرى . وما تولى إلا وقد جاء بحادثين بدلاً حظ البحر الأبيض المتوسط وحظ مرافئه في الحركة التجارية والعمرانية . وهما اكتشاف فاسكو دي جاما طريق الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد أن شق كولمبس البحار وصولاً إلى الأقطار الأمريكية . هويينا التطور يتتابع في الغرب حثيثاً سواء في العلم وأسباب المواصلات وامتراج الشعوب والصناعة والتجارة والثروة والحرية الفردية والكرامة القومية - كانت مصر ، وقد حرمت من مرور تجارة الشرق ، تتقهقر ببطء حتى انقطعت العلاقات بينها وبين العالم . وظلت ثلاثة قرون يحكمها بالإسم ولاية عثمانيون وتدفع الجزية السنوية إلى تركيا إلا أنها تعثر فيها تلك الفئة الطاغية من المماليك « البكوات » . ففشت في أنحائها الخزعبلات والأوهام ، واشتد العوز مهدداً بالأمراض والمجاعات . والدول التي تتنافس الآن في اكتساب صداقات كانت قد نسيت حتى الوجود من هذه البلاد الفريدة بتربتها وتاريخها وحضارتها العريقة ، الفريدة بموقعها الحربي المنيل النفوذ السياسي والرواج التجاري لجمعه بين القارات الثلاث وسيطرته على طريق المشرقين .

أي عجاجة لا تثير أعمال الرجل العظيم ! هبط نابليون الشرق يستغله ويقم عليه الركن الأول من عرش أراد أن ينجيم ظله على الشرق والغرب

جميعاً . فهبت الدول تقاتل الجبار وتحالف لجزمة جحافلهم . وصار القطر المهجور محجة الغايات لأن البطل أدخله في خريطة أطماعه .

جاءت القوة العثمانية بقيادة القبطان حسين باشا وتكاثفت والحملة الإنجليزية في الرحمانية فزحفتا معاً على القاهرة . فسلم الفرنسيون نهائياً في سبتمبر ١٨٠١ بعد الاحتلال بثلاثة أعوام دون جني أية فائدة حربية . وكم من عمل يؤتى في سبيل غاية تفشل ، فإذا به موفور العائدة لغاية أخرى !

فقد أسفرت الإغارة الفرنسية عن ثلاث نتائج الأولى قومية . إذ شعر المصريون بأهمية بلادهم وبمقدرة الشعب على إزعاج الحكومة المستبدة إذا هو اتحد وتضامن . كما لمحووا وميضاً من المدنية الأوروبية الحديثة ورجعوا في اقتباسها .

الثانية علمية - إذ استصحب نابليون جماعة من العلماء الأخصائيين . فدرسوا طبيعة البلاد ومواردها ، وأدخلوا الطباعة ونشروا الصحف وأسسوا « المجمع العلمي المصري » وجاءوا في مختلف الموضوعات بأبحاث قيمة ، منها وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر الذي سيستفيد منه دلسبس وأحدثوا إصلاحات كثيرة ذهب جلها إنما بقي منها جرثومة ستنمو بعد الآن على يد حكومة البلاد .

الثالثة سياسية - إن بين ضباط القوة العثمانية كان ذلك الرجل الذي ولد هو ونابليون وولنتجتون في سنة واحدة « ١٧٦٩ » وحكم مصر بعد محوه للمماليك ... وبين رجال محمد علي رجلان مختلفان أصلاً وعملاً أحدهما كردي وهو محمد تيمور بن إسماعيل بن علي كرد ، الذي كان ضابطاً وساعد في استئصال دولة المماليك حتى صار من خاصة الوالي . فترقى في المناصب من كاشف ، إلى محافظ ، وتوفي سنة « ١٢٦٤ هـ » . « ١٨٤٧ م » والآخر تركي الأصل وهو عبد الرحمن أفندي الاستانبولي الذي كان كاتباً

في الديوان الهمايوني عند السلطان سليم الثالث ثم صار ذا مكانة عند محمد علي حتى أنه بعد وفاته دفنه في القلعة . وكان لسلالة هذين الرجلين أن تحمل علامة اليمن . فقد تزوج محمد تيمور بابنة عبد الرحمن أفندي فكانا جدَي الشاعرة .



ولدت عائشة سنة ١٢٥٦ هجرية قبل وفاة محمد علي بتسعة أعوام ، وتوفيت بعد تولية عباس الثاني بعشرة أعوام أي أنها شهدت تطور بلادها على عهد أربعة ولاة هم : محمد علي وإبراهيم وعباس الأول وسعيد ، وثلاثة خديوين هم : اسماعيل وتوفيق وعباس الثاني .

كان لمحمد علي مطامع سياسية معينة فبذل المجهودات لتأييدها في الداخل بإنشاء المدارس الحربية والمستشفيات العسكرية ، وتنظيم الجيش وتخرج الأطباء ، ونشر المعارف وإرسال البعث إلى أوروبا لتلقي العلوم الفنية والميكانيكية والحربية . أما في الخارج فكان يؤيد مطامعه بالحروب والفتوح .

وتتابع التطور ضئيلاً خلال ولاية إبراهيم التي لم تدم سوى شهرين اثنين ، وولايته عباس الأول وسعيد حيث كان غرض التعليم محصوراً في تخريج موظفين للحكومة وضباط للجيش . وإن امتاز عهد سعيد بأمور ذات شأن ، منها وفاء ديون الحكومة ، وحذف الجمارك الداخلية والاحتكارات ، وإرجاع الحرية الفردية وحق الملكية إلى الفلاحين - بعد أن كان محمد علي قد جمع الأملاك بين يديه جاعلاً الحكومة تسيطر على كل تجارة مع الخارج . وتم في عهد سعيد إنشاء القناطر الخيرية التي بدى بها بأمر من محمد علي . وسعيد هو الذي فوض إلى صديق طفولته دلسبس أن يباشر حفز قناة السويس .

بيد أن الاندفاع الأكبر جاء في عهد إسماعيل فعاد إلى معالجة مشروعات

محمد علي مرسلًا البعثات إلى أوروبا ، موجدًا المكتبة الأهلية ومتحف الآثار المصرية ، حافراً الترع للري ومجتملاً المدن الكبيرة .

وأصدر أمراً في أواخر عهده يعلن رغبته في أن يحكم بواسطة مجلس نظار ، بعد أن كان أصدر أمراً بتشكيل مجلس نواب تأخذ الحكومة رأيه في ما تسن وتحرر من النظم والقوانين وكان كاهل مصر قد أثقل بالديون مما أدى إلى قبول الرقابة الأجنبية على المالية المصرية . فقام يوماً ينكر على الموظفين الأوروبيين حق التدخل في شؤون بلاده . فحملته الدول أثر ذلك على التنازل لولده توفيق تحت الرقابة الفرنسية الإنجليزية فيما يتعلق بالمالية .

وقامت الثورة العرابية مطالبة - فيما طالبت به - بإلغاء الرقابة الأجنبية على المالية المصرية . وكان ما كان من احتلال إنجلترا وتفويضها إلى لورد دوفرن درس مختلف المشاريع وتنفيذها في مصر . وبعد توقف القطر عامين استطرد فيه التنظيم والتقدم بحيث تمكن القاضي المفكر قاسم أمين أن يقول في رده الفرنسي على الدوق داركور :

« ان الحرية التامة سواء في التفكير والكتابة أصبحت مباحة ، وأن المصري يتمتع الآن بكل ما ضمنه الاعلان الشهير من « حقوق الانسان » . وإن « الجميع يتوقون إلى العلم ويتعلمون معتبرين أن هذا هو السبيل الوحيد للنهوض . منذ ثورة عرابي انتبه الشعب المصري لمكانته وكرامته . استنار ذهنه فجعل يهتم بنظام الحكم وبالشؤون العامة يقدرها ويحكم لها أو عليها . وبالجمله فإن مصر تيقظت بالفعل » (١) .

نشر قاسم هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ : ولما توفيت عائشة بعد ثمانية أعوام كانت حركة التطور في ازدياد وقد أضيفت إليها عناصر فنية متنوعة .

أهي يقظة الفكر عند الأفراد تهبيء اليقظة القومية أم هي يقظة الجمهور

ومطالبه والأحوال المحيطة به التي تخلق الأفراد وتحببهم بالمواهب الضرورية ليتكلموا بصوت الجماعة ؟ .

أظن أن التفاعل هنا محتم كما هو في كل أمر آخر . فالأفراد يخلقون الجمهور والجمهور يخلق الأفراد . لأن القوى البشرية محكمة الترابط فيما بينها ، فإذا انتهت إحداها تأثرت بذلك الانتباه جميع القوى وهبت متجددة نابضة ، مبدعة . كأنها الصوت الواحد يحدث هزة في مكان من الهواء فتتناقله الموجات المسارعة حتى يرن في أقطاب الفلك جميعاً .

ولكن يخيل أنه قبل تنفيذ أي عمل يقتضي رسم خريطة خيالية جليلة في الذهن الناضج الصافي . خريطة من الخرائط التي يسمونها المتكلمون « نظريات » . وهذه النظريات التي تثني لذكرها شفاء العلمين هي من الأهمية بحيث أن الطبيعة لا تجمع عادة (وان فعلت نادراً بشذوذ جميل) بين مقدرتي النظر والعمل في شخص واحد . إذ أن لكل منهما صفات تنافي صفات الأخرى . يهيم النظر يون الخرائط الذهنية ، فينظر فيها سواهم بعين النقد والتمحيص مستخرجين منها ما لا هم حاجة الوقت ، وينفذها آخرون فتصير شيئاً محسوساً يستخدم ويخدم . كأنما هي « المثل الأفلاطونية » التي بموجب نظريتها لا تكون المحسوسات إلا انعكاس أفكار كائنة في ذهن الاله الأعظم . تلك هي حكاية التلغراف اللاسلكي التي ابتدأت مع مكسويل وهرتز وبرنلي نظريات وتعديلات علمية ، فصارت مع ماركوني عاملاً آلياً تعنوا له مجاري الجواء في نقل الأفكار . وتلك هي حكاية الغواصات التي كانت في كتب جول فرن الفرنسي روى وأخيلة علمية . فبسط اديسن الأمريكي لوزارة بحرية بلاده إمكان انشائها في تقرير نسخه الألمان سراً ، وسيروها خلال الحرب مدناً متحركة تخفر البحار وتصادر سفن الأعداء وسفن من كان لهم موالياً وظهيراً . وتلك هي حكاية الثورة الفرنسية أعداها الكتاب والمفكرون ، والثورة الروسية التي مهد لها الروائيون والشعراء سبيلاً .



وانتحت الحياة الجديدة في مصر هذا النحو . فإنه إلى جانب التحسين الزراعي والحربي والميكانيكي والمدرسي ، ظهرت حركة أخرى راودها الغموض في البدء إنما جعلت تتسع وتنجلي مع الأيام . نشأت عن تواصل الاحتكاك بمدينة الغرب سواء بواسطة التزلز المقيمين في هذه الديار ، وبعوث الشبان العائدين من أوروبا وقد تطعمت نفوسهم بجديد النزعات وحديث الآراء ، وجماعات خريجي المدارس المصرية وقد سرت إليهم عدوى الفكر العصري خلال ما تلقنوا من الدروس الأوروبية . وقدم مصر جماعة من نوابغ السوريين وأحرارهم النازحين أثر النكبات فكان صدم أفكارهم بأفكار المصريين جزيل النفع للفريقين ولل فكر العربي عموماً .

بلغت تلك الحركة أشدها في عهد إسماعيل وقد بدت أدبية اجتماعية بعد أن كانت ميكانيكية علمية ، يمتزج فيها استيعاء الجديد وتجديد « القديم » الاستيعاء بالاطلاع على مؤلفات الأجانب ونقل ما تيسر نقله منها إلى العربية . والتجديد باعلاء شأن روح اللغة . إذ كانت يومئذ آلات مطبعة بولاق الأميرية والمطابع الأهلية الأخرى تشغل لإعادة نشر مؤلفات « المدرسين » من كتاب الاسلام وعلمائه الأقدمين . وكثرت الصحف حتى بلغ عددها السبعة والعشرين فترتب على ذلك « نشر أغراض عامة في تلك الجرائد ومباحث علمية وأدبية في صحيفة روضة المدارس وتخريج نوابغ من طلبة مدرسة دار العلوم على يد استاذهم المرحوم الشيخ حسن المرصفي واستفادة بعض النبهاء من طلبة الأزهر بطول اختلاطهم بالمرحوم الشيخ جمال الدين العالم العصري حين ذاك ، سلوك سبل أخرى في الإنشاء تستمد منها الأقلام . فعوضاً عن الاشتغال بكتابة التهاني أو البشري بمولود ، أو التأسّي على مفقود أو المدح أو الهجاء أو العتاب أو الاستعطاف أو التغزل بالغيد والغانيات أو مكاتبة الأصحاب والأحباب والرجاء والاعتذار التي هي من الأغراض الخصوصية ، مالت الأقلام إلى الكتابة في حب الوطن وما يستلزمه من خير العمل والحث

على الفضيلة والتباعد عن الرذيلة وحق الحاكم على المحكوم والمحكوم على الحاكم وغير ذلك من شرح حكم عالية هي من الأغراض العمومية . كل هذا كان أعظم مرشد للمطلعين عليها حتى ترتب على ذلك تغيير عظيم في الأساليب الإنشائية ، وفي الحركة الفكرية وفي الشعور بالذاتية ^(١) .

ذكر هنا أمين باشا سامي ذلك الرجل الشرقي الشبيه بفلاسفة الماضي كسقراط وسواه الذين لم يكتبوا وإنما أرسلوا تعاليمهم ضمن المحادثات العادية . وكانت أهم المحافل الفكرية هي الحلقة التي تعقد حول جمال الدين « في القهوة التي قرب قهوة البورصة القديمة » ولعل تلاميذه لا ينسون في مستقبل الأيام أن يحيوا ذكره بينهم في ذلك المكان . هذا رأي الدكتور شبلي شميل الذي عرف الأفغاني وجالسه وناقشه . ويتابع الحديث عنه قائلاً :

« لم يكتب فيما أعلم شيئاً ^(٢) وإنما يلقي على آخرين مقالات ضافية تنشر في جريدة مصر ^(٣) تحت أسمائهم . ولولا الشيخ محمد عبده ويده الكاتبة لما كان لصوته صدى ولبقيت تعاليمه في صدور أكثر الذين تلقوها عنه وماتت معهم إذ كانت كل تعاليمه حديثاً يلقيه بحسب مقتضى الحال . » « وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الاختصاص وأعماله محصورة في دائرة مريديه . وأما جريدة مصر فكانت سبباً كبيراً لاذاعة صيته ونشره في الآفاق » . « ولم يتبأ له أن وقف خطيباً في قوم إلا مرة واحدة أظهر فيها أنه خطيب مفوه أيضاً . وكان ذلك بمسعى أديب إسحق

(١) أمين باشا سامي في كتابه « التعليم في مصر » .

(٢) يعني أن جمال الدين لم يكتب بيده مقالات للصحف المصرية . إلا أنه أنشأ في باريس « العروة الوثقى » التي أصدرها بالاشتراك مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده . وتوفي عن كتابين أحدهما تاريخ الأفغان والآخري نقد للفلاسفة الماديين نقله عن الأفغانية الشيخ محمد عبده أيضاً .

(٣) يعني جريدة مصر التي كان يصدرها سليم النقاش وأديب إسحق ثم ألغيت ورخص لها بإصدار جريدة « المحروسة » محلها .

وفي تياترو زيزينيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين . فألقى خطبة اجتماعية سياسية أبدع فيها معنى ومبنى وجرأة وبقي يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون أن يبدو أدنى تعب أو يتلعثم حتى خلب العقول وأقام الناس وأقعدهم «^(١)» .

جاء الأفغاني مثلاً محسوساً لتفاعل الأفراد والجمهور . إذ رأى ببصيرته النافذة ما يحرك نفوس أخوانه من العوامل المستفزة نفسه ، دون أن يهتدوا إلى كيفية التلخيص والإفصاح . فتكلم فيهم بلغته « المزوجة ببعض لكنة اعجمية تنم عن أصله الغريب وإنما وقعها على الأذن كان محبوباً »^(٢) . تكلم فيهم بفصاحته النارية فكان له اليد الطولى في تحريض الأفكار واضرام الثورة العربية « . فهو زعيم الناقمين في ذلك العهد ، هذا الأفغاني الذي أرسلت شعله روحه الشرر من أفغانستان ، إلى بلاد فارس ، إلى وادي النيل حيث مر كتيار لفاح .

شعر الفكر المتغير المتكيف بوجوب تبديل استارته والتجلي بزي يوافق صورته الخفية فكان ذلك التطور في نتاج القرائح والأقلام من شعر ونثر ، وإن كان في الشعر أسبق أما في النثر فأوضح . وظهرت مع الشعر الفصيح ضروب من الشعر العامي كالموالي التي لم يأنف معالجتها نفر من كبار الشعراء . وتجدد « الزجل » الطلي . وأما وضوح النثر فجاء من انتشار العلوم الطبيعية والرياضية فمال الناس معها إلى أحكام المعنى وإخراجه من معمعة السجع والجناس والإستعارة والتورية . وبديهي أنه لم يفلح في ذلك أولاً غير النفر اليسير ، وتفرقت من الآخرين الطرق . فتحدى بعضهم أسلوب الأقدمين

(١) ننسخ هذه النبذة من فصل للدكتور شمیل نشر في مجلة « الزهور » (في ديسمبر ١٩١٢) التي اقتطعت ذلك الفصل من مجموعة مذكرات قالت ان الدكتور كان يومئذ يشتغل بوضعها باسم « حوادث وخواطر » .

(٢) الدكتور شمیل نقلاً عن الفصل المذكور في « الزهور » .

من صدر الاسلام أو من صدر العباسيين . وتسربت إلى أسلوب غيرهم ركافة لغة الدواوين التي لم نخلص منها حتى في هذه الأيام . ولعل أقرب الأساليب مثلاً هو أسلوب الصحافة التي كانت وما زالت عندنا ميداناً للعلماء والشعراء والأدباء ، وقد تحتم عليها التوفيق بين مختلف الأذواق والكتابة بلغة يفهمها الجميع على السواء . ولصحافتنا في ذلك تاريخ أعز . وما فتىء التحسن يبدو عليها من عام إلى عام وهي عامل كبير في رفع فكر المجموع ، وربما كانت العامل الأكبر لأنها العامل الأشمل .



وإذا كانت الحالة الفكرية والاجتماعية في تفاعل مستديم ، فكيف كانت يا ترى العيشة العائلية ؟ كيف كانت حالة المرأة ؟ أكان يصل إليها صدى الخارج ؟ أكانت تشتغل لرقي بلادها في دائرة الأسرة وتترك معنى المطامح القومية ؟

هاك شبه جواب عن هذه الأسئلة عند أمين باشا سامي الذي يخبرنا أنه في عصر محمد علي كان الأهالي : « عقبه كؤوداً في طريق تعليم بنينهم . غير أنهم لما تحققوا أن تعليمهم في تلك المدارس ومكثهم بها ينقل حالة أبنائهم إلى حالة أرقى من التي انتشلوا منها تحققت الرغبة عندهم » . « أما تعليم البنات فلم يصادف تسهلاً في عصره حتى اضطر إلى إصدار أمره إلى حبيب أفندي في ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٤٧ هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٨٣١ م) ^(١) بشراء عشر جوار سودانيات صغيرات السن ينتخبن بمعرفة كلوت بك لتلقي فن الولادة ومعهن اثنان من آغوات الحرم يتعلمان فن الطب والجراحة » ^(٢) .

كانت عامة الفتيات تتعلم التطريز وأشغال الإبرة سواء في بيوتهن

(١) أي قبل ولادة عائشة بتسعة أعوام .

(٢) « التعليم في مصر » .

أو بالتردد على المعلمات القبطيات وغيرهن . ومنهن من يتعلمن القرآن على فقيه البيت . ونفسي تحدثني أن ذلك الفقيه كان ينطبق عليه وصف صاحب مذهب « هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد » .

ليأخذن التلاوة عن عـجـوز
من السلائي ففسرن مهمـمات
يسبحن المليك بكل جنح
ويركعن الضحى متأتمـمات
فما عيب على الفتيات لحـنـن
إذا قلن المسرود مترجمـات
ولا يدينن من رجل ضـرير
يلقنهـن آيا محكمـات
سوى من كان مرتعشاً يداه
ولمـنـه مـن المتغمـمات^(١)

أليس هذا قد كان رأي أكثر الأهل في معارف البنات وفي الذين يتولون تعليمها ؟ بيد أن السيل متابع مجراه والوفود الأوروبية ترد أفواجا ومعهـا البعـوث الدينية تؤسس المدارس للبنين والبنات . فأنشئت مدرسة راهبات الراعي الصالح في شبرا منذ ١٨٤٤ ، وتلتها مدرسة الأمريكان للبنات بالأزبكية سنة ١٨٥٦ ، ومدرسة راهبات الفرنسيـسكان الإيطالية سنة ١٨٥٩ . وبيننا مدارس الجوالي تتكاثر في أنحاء القطر أسست بمدرسة البنات بالسبوفية سنة ١٨٧٣ (ولم يسبقها من المدارس الأميرية سوى مدرسة الممرضات والقوابل منذ عهد محمد علي) . وهي المدرسة التي تعرف اليوم بالمدرسة

(١) « اللزوميات » لأبي العلاء المعري .

السنية . وتلتها مدرسة القربية سنة ١٨٧٤ ثم انضمت ومدرسة السيوفية وعرفت بها . وكان عدد المدارس للبنات والبنين في إزدياد سريع حتى أنشئ منها في حياة « عائشة » ما يقارب الألف من مدارس أميرية ومدارس تابعة لمجالس المديرية أهلية وأجنبية عدا المعاهد الدينية والكتاتيب .

بيد أن المرأة لم تكن وصلت إلى دور تثقيف نفسها . بل كانت راتعة في انقطاعها وجهلها شأن من اعتاد الهواء الفاسد يضيق منه النفس ويعتل إذا هو انتقل إلى حيث الهواء نقي . وإنما هي الأقلية المتنورة من الرجال التي كانت تطلب في الزوجة شريكة وصديقة ، وللأبناء التربية المنزلية الصالحة ، وللبيت ذلك الجو المفرح الذي تخلفه المرأة بعدوبة حبها إذا هي قرنت بالحصافة والمعرفة . وكان أولئك الرجال يتشاكون الغم فيما بينهم وليس من يقتحم مصادرة الرأي العام . حتى انبرى قاسم لا يبالي بتطعين الحراب ، هادئاً كمن جس مقاتل الخصم وتسليح بصارم الحق واليقين .

الحياة المنزلية

نحن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، في مدينة القاهرة عاصمة الديار المصرية قبل أن تبدل معالمها يد الهدم والبناء . وقبل أن تصقل بعض جوانبها يد التحسين الجديد . مدينة شرقية توالى عليها نوايب التاريخ واختلطت فيها أجناس الشعوب وهي لسرها الطويل كتوم توزعت في مختلف الجهات منها البقايا الأثرية والجوامع البديعة الفاتكة على الثلثمائة ، والحمامات والأسواق و« السبل » المرمية المقدمة ماءها العذب لكل ظمآن يرتوي وفوق المدينة الجائمة ترتفع تلك المآذن بقاماتها الهيفاء فيخيل أحياناً أن الإنسانية أعلت هياكلها في الهواء الأزرق ليس ليصل صوت المؤذن إلى المؤمنين على مسافة بعيدة فحسب ، بل ليكون المبتهل في صلاته أقرب إلى باريه وأرسخ في الثقة بالاستجابة . وطوراً تبدو تلك المآذن كأنها حراب أرسلتها أيادي الإسلام تنبئ الجائب بأنها على دوام الاستعداد لدفع الطوارئ عن الدمار .

في الشوارع والساحات تبصر اخلاطاً من الثروة والفقر ، اناساً يرتدون الأثواب النفيسة وعليهم دلائل النعمة والرخاء ، وآخرين يرتدون الأطمار البالية وعليهم دلائل الذل والشقاء . ولكن « رغم مشهد الفقر والمرض عند الشعب فإن شوارع القاهرة ليست لتوحي الأسف والخيبة اللذين يشعر بهما المسافر في الأستانة ذات المنظر الفخم من الخارج ، المحزن في الداخل . نعم ان أكثر هذه الشوارع مظلمة ملتوية متشابكة الواحد في الآخر كأنها مجاهل

التيه ، يعترضها هنا وهناك ممرات خفية وغاية ما يسع عايرها أن يستسلم
لحكمة دابته وثقاقتها . على أنها نظيفة يتعهدونها بالكنس والرش المنظم .
وبدلاً من بلاط الأستانة الشنيع وتلك السلام الحجرية في غلطة وبيرا ،
لا تجد هنا إلا أرضاً مستوية صلبة تسير فوقها بلا عناء . أما المنازل القائمة على
جانبي الشارع فهي في الغالب أشبهت من بيوت عاصمة تركيا وأتقن صنعة .
ففي كل وقت تبصر العين الواجهة المزخرفة بالنقش العربي ، أو النافذة ذات
المشبك الخشبي الدقيق الفن الأنيق التفاصيل ، فيكاد المرء يغتفر لأجلها
الغيرة التي أقامت هذا الحاجز بين داخل المسكن وتطلع السابلة » (١) .

كاتب أجنبي يمحينا بهذا القول لا يرى في ذلك « الحاجز » سوى رمز
« للغيرة » . كأن الغيرة من واردات الشرق التي يتفرج عليها الغرب ولا
يكابدها . ولكن هلم نقف أمام أحد هذه المنازل ، أمام المنزل الذي نتطلع
الآن نحو الماضي لأجله . هلم نستعين بالخيال حين لا وسيلة سواه ، فنخترق
جانباً من الحديقة الحافلة بالورد والرياحين تحت رعاية الأشجار ذات الظل
الوارف . هو ذا الآغا يسير بنا إلى دار الحريم حيث تلقانا طغمة من الجواري
والخادومات وتدعونا إلى الجلوس في الفسحة الواسعة الموفرة النور والهواء
أرضها تختفي وراء البسط العجمية والطنافس الفاخرة . والمقاعد والأرائك
تدور في جوانبها ، تتخللها الطاولات الصغيرة وعليها أدوات التدخين من
علب اللقائف وأطباق صغيرة للرماد (منافض) . وعلى جدرانها تتألق
مياه المرايا العميقة الصافية . وقام في وسطها خوان كبير من الخشب المموه
بالذهب ، تتدلى فوقه الثريا العديدة الشموع المنحدرة من السقف المصنوع
من خشب الجوز المجلل بالنقش والزخرف بل هي هبطت من صميم رسم
مثل وردة كبيرة تناوب فيها الحفر والتخريم بتنوء مستدير وسيم . فكان

(١) "De Constantinople au Caire", par Xavier Marmier.

وقد كتب هذه الرحلة سنة ١٨٤٥-١٨٤٦ صاحبها العضو في الأكاديمية الفرنسية .

النور خلال تلك التخاريم من جهة إلى جهة نفيذاً .

هذه هندسة أكثر منازل الطبقة العليا وما دونها قليلاً في ذلك العهد وما بعده حتى أوائل القرن العشرين . أما البذخ والترف في بيوت الكبراء فيبدو في اتساع الغرف والردهات ، وفي تعدد المقاعد والمرايا ونفاسة الأقمشة والثريات والطنافس . ولا بد من قاعة أو قاعات للاستقبال . على أن السيدات يقابلن عادة في هذه « الفسحة » فسحة الدار ، كل شهور الصيف الطويلة . وهنا تنعقد اجتماعات الأسرة سواء في الليل والنهار .

اقتبس هذا الوصف من كتاب الزوجة الأولى لصاحب الدولة حسين رشدي باشا . كانت السيدة فرنسية ووضعت كتابين بلغتها وقعتها باسم « نية سليمة » المستعار فوصفت فيهما المجتمع المصري وعاداته على ما ادركته في أواخر القرن الماضي . وإنما استندت على هذا الكتاب ^(١) لأن هدى هانم شعراوي التي تفضلت فأعارتني مع الكتاب الآخر ^(٢) قالت لي إنه أصدق ما قرأت من نوع هذه الكتب في وصف العادات المصرية ، وأكثرها انصافاً وأقربها إلى الواقع . وإذا أضفنا إلى ذلك أن « نية سليمة » عاشت في ذلك المجتمع وعاشرته وأحبته ، غير ضارين صفحاً عن بطء التطور الاجتماعي ، ولا سيما في الشرق وفي الأيام الخالية ، أمكننا أن نقول إن هذا الكتاب وإن أنشئ في أواخر القرن التاسع عشر فهو يقرب كثيراً إلى ما كانت عليه في أيام عائشة .

فلتكن إذن « نية سليمة » دليلنا .



هي تقول لنا إن هذه السيدة الجميلة البشوشة التي جاءت مرحة وجلس

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte", par Niya Salima.

(٢) أما الكتاب الآخر فهو رواية « Les Répudiées » التي طبعت سنة ١٩٠٧ قبيل وفاة المؤلفة .

على المقعد قربنا هي ربة المنزل . أما أولئك النسوة الجالسات على « الشلت »
فهناك خبرهن :

« انهن من المترددات على المنزل وليس لهن أن يجلسن قرب السيدات
على المقاعد ، وان كن أرفع قدراً من الخادومات الجاثمات على البساط أو على
الحصيرة » . « هن من الجواري البيض المعنوقات ومن الجواري السود
اللائي حججن . ومعهن الدلالات بائعات الأقمشة والبضائع . ومعهن
المراضع وأخوات الرضاعة وقارئات القرآن وسواهن من النديمات ومن
المختلفات إلى المنزل لأغراض شتى . يأتين ويجلسن القرفصاء كل اثنتين
أو ثلاث على « الشلثة » الواحدة ، ويشتركن في الحديث ويروين الأخبار » .
« أما الزائرات المهمات فتأتين وبعد كلمات الترحيب وتقديم لفائف التبغ
تحضر القهوة التي يستغرق تقديمها من الزيارة زمناً . فالعادة في الطبقة المتوسطة
أن يؤتى بها مصبوبة في الفناجين على طبق من الفضة . أما في البيوت الكبيرة
فيتعاون في تقديمها ثلاث خادومات على الأقل : إحداهن تحمل الطبق يحملله
غطاء مخملي مزركش وقد تهدلت من حواشيه الهدبات الذهبية والفناجين
مصفوفة عليه . وتحمل الخادمة الثانية أبريق القهوة في شبه مجمرة فضية
إمتلأت بالرماد المتلطي . بينما الخادمة الثالثة تصب القهوة ، وتدور بها
على الزائرات » (١) .

أما الأحاديث فهي طبعاً لا تختلف عن المألوف حتى اليوم في الدوائر
النسائية غير المتنورة و.. وربما المتنورة أحياناً . موضوعات لا تنفد مادتها
كأنها الماء كلما غالبت في الاسراف منه زاد تدفقاً وسيولاً . وتلك الموضوعات
هي الولادة ، والخطبة ، والزواج ، والموت ، وخصام الأزواج ، وخصام
العائلات فيما بينها ، والثروة ، والأغتياب الخ . ولكن يخيل أن السيدات
المصريات لم يكن يومئذ لتنطبق عليهن التهمة التي يحب الرجال أن يلصقوها

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

بالمرأة لأن « نية سليمة » تقول بجلاء إنه :

« ليس من الغريب أن يقطع الأحاديث غير مرة سكوت طويل وربة البيت لا تقلق من جراء ذلك ولا تجهد ذهنها للاهتمام إلى موضوع جديد . فقد حضرت مجالس السيدات قليلات التزاور فيما بينهن يظللن جالسات معاً دقائق طويلة ثم يفرقن دون أن يتبادلن كلمات التبجيل المبذل والمجاملة الشائعة ذات المراسيم المسهبة والجميل المهلهلة . فهي تنطوي على تمنيات ودعوات صالحات يتيسر ترديدها مرات عديدة دون أن يكون في ذلك غضاظة أو خشية الهزوء والنكته » . « ثم تأتي زائرات أخريات فتنهض صاحبة المنزل للاحتفاء بهن ويحذو حذوها الجميع ، فتلقي الواصلات الجديرات التحية ، ولكن ما أدق الفوارق في أساليب التحية ! انهن يقبلن يد السيدة المسنة ويدعونها « عمتي » . ويقبلن وجنة مثيلتهن في السن والمرتبة ويدعونها باسم « الأخت » العذب . ويقابلن معارفهن الأقل مؤالفة بتحية تركية » . أما السيدات الأوروبيات فيصافحنهن باليد^(١) .

ان اللائي يحضرن اجتماعات السيدات المصريات يعلمن أن وصف صنوف السلام ما زال حياً بحياة الواقع في أيامنا . ولقد كانت دواماً ساعات السلام لي أوقات اغتباط ودرس اتبين فيها العادات الراسخة وأحلل أسبابها ما أمكن ، بيد أن هناك نوع سلام آخر يدخل في الصنف الثاني الذي وصفته « نية سليمة » إلا أنه يتجاوزه للافراط في التودد والتعاطف . وهو ضم الخد إلى الخد مرة بعد أخرى وإرسال قبلات سريعة متوالية في الهواء يسمع لها مصيص شائق كأنه تغريد طائفة خاصة من الطير . وفي ما يتعلق بالتحية التركية « أو « اللاتوركا » كما يقولون فهي كما تقول « نية سليمة » :

« كم من نبل وكياسة في التحية التركية وكم تنويعها ميسور ، فاليد اليمنى تفتح بهيبة وبلا توتر وتستطيل في تحدر أكثر أو أقل بعداً حتى ليصل

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

إلى الأرض عند الضرورة . ثم إن النصف الأعلى من الجسد الذي انحنى يعود إلى التقويم والاعتدال مسائراً حركة اليد التي تدنو من القم أولاً ، ثم من الجبهة دون أن تمسها ، وتركن أخيراً إلى موضعها تاركة خلاء في الهواء كما يترك مرور جناح الحمامة .

« والوداع يشبه السلام فتعاد عنده طقوس الاحتفاء والتبجيل ذاتها . أما التفصيل الحري بانتباه خاص فهو أن السيدات اللاتي لا يرين مطلقاً أزواج صاحباتهن يحسبن مخلات باللائق ان لم يبعثن إليهم بالسلام مع زوجاتهم . وربة البيت لا ترافق زائراتها بل تتقدمهن إلى الباب فيتبعنها »^(١) .

لطيف هذا ! ومعناه المشيعة تسهل لزائراتها السيل وأنها تخرج من منزلها على نوع ما بخروجهن أو هي تودع معهن شيئاً منها . وإني لأؤثر هذا على السير وراء الزائرات كمن تطردهن طرداً وتقتفي أثرهن لتكون على ثقة من ذهابهن والتثبت بأنها تخلصت لحين ما من ورطة وجودهن .. !



هب أن هذا المنزل الذي زرنه الآن متبينين فيه بعض عادات ذلك العهد هو منزل اسماعيل تيمور باشا^(٢) ، وأن تلك السيدة ربة البيت التي رحبت بنا هي والدة عائشة ، « وهي جركسية الأصل معتوقة والدها اسماعيل تيمور باشا »^(٣) فأين عائشة الصغيرة نفسها ؟ أين الشاعرة العتيقة التي نلتفت اليوم إلى معالم الأمس لننال لمحة من حجر نعمتها وما فيه من خطوط الفتها فكان هيكل زفرائها وهديلها ؟

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

(٢) لقد هدم المنزل الذي ولدت وشبت فيه عائشة كما هدم المنزل الذي سكنته بعد زواجها .

وقام على آثار كل منهما أبنية جديدة .

(٣) « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » .

ألا فاعلم أن عائشة اليوم بنية صغيرة لا تحضر مجالس « السيدات »
ولا تختلط بالزائرات ألا لتقبل أيديهن أن كن من صديقات والدتها وقربيات
أسراتها . وإذا شئت أن تراها فعليك بذلك المخدع المنفرد حيث تجدها
مع أختيها .

الفصل الثالث

النشأة والزواج

نشأة الشاعرة

مع أختيها ؟ اذن بين فتيات ثلاث مقاربات سنأ ، متماثلات حالاً ، كيف لنا أن نهتدي إلى ضالتنا ؟ لو عرفنا صورتها امرأة لاستدللنا بعلامتها المركزة لتبينها الآن بين أختيها لاعبة لاهية - أو هادئة راصنة كما كان وما زال كثيرون من الشرقيين يريدون لأبنائهم جاعلين حدائهم شيخوخة ، مكبلين منهم البداهة على نوع ما فيحرمونهم مرح الطفولة الهنيء وذكريات الغفلة ونعومة البال . إلا أن الشخص الوحيد الذي في وسعه أن يطلعنا على تفاصيل معيشتها ، أعني شقيقها الجليل أحمد تيمور باشا^(١) يفوته من حياتها قسط وافر . لأنه ولد قبل وفاة والده بسنة (١٨٧١) يوم كانت عائشة في الحادية والثلاثين ، تعيش زوجة وأماً في منزلها بعيداً عن دار والدها . لذلك رغم كل ما نقلناه عند أحمد باشا من الاستعداد لتلبية السائل ، فإنك لتراه أحياناً يتوقف عن الجواب ريثما يراجع تذكاراته ، ثم يقول ببسمة الآسف «والله ما اعرفش» .

بيد أنني فزت منه بهذا الوصف الظريف في إبهامه . « كانت لا طويلة ولا قصيرة ، لا بيضاء ولا سمراء ، لا سمينة ولا نحيفة » . أما عطوفة ادريس

(١) كانت لعائشة أختان احدهما توفيت في حياتها وقد رثتها في « حلية الطراز » ، والأخرى منيرة هانم تزوجت من علي باشا آصف وتوفيت بعد وفاة الشاعرة .

راغب باشا الذي رآها في حديثه في زيارة والدته فطنت هانم حرم اسماعيل .
راغب باشا^(١) فقد رد على استفهامي بقوله : « مش في بالي تمام كانت ازاي ،
لكن كانت حلوة والله » كذلك بعد مرور أعوام ، وقد تقدمت عائشة
في السن ، رأتها حرم شعراوي باشا تزور الزوجة الثانية لوالدها محمد
سلطان باشا^(٢) . وقالت لي : إن كل ما تذكر منها أنها « كانت ست كدا
الاتوركا » . مفهوم انها لم تكن الا فرانكا !

ولكن أظننا بلا دليل ولا علامة قد نعرفها بمجرد الاستسلام لهدى
الفراسة . ان التي ترجح على أختها بمثل ما رجحت عائشة لا بد أن تحوي
ملا معها منذ الصغر شيئاً يختلف عما يرى في وجه عادي الصغار . فنحب
أن نتصورها طفلة دمثة في العاشرة من عمرها ، تنضح شفتها المتوسطتا الحجم
بطلاوة العاطفة وشوق المحبة . شفتان تهمان بالافتقار لتذوق المستطاب
المستساغ من طعوم الحياة جاهلتين ما وراء ذلك من حنظل وغسلين . ونحب أن
نتخيل في العينين القاتمتين من معاني الشجن وغزارة العواطف ما يتفق مع
معاني الوجوم واللذاعة في الثغر . ونكاد نرى تينك الشفتين تحتمان بالخط
اللطيف البارز بدقة كأنه حفر حفراً ، الذي يرى في شفاه أهل الفن والذوق ،
وفي شفاه بعض الشعراء . كأنه يشير إلى الأوزان التي سيضبط توقيعها العواطف
المستفيضة الشاردة ، ويقتنص الزفرات الملتهبة المتدافعة ليسكبها في ما يظل
منضداً على القرطاس نظيماً ، ويظل على شفاه الطروب من الناس شادياً .



من أين جاءت هذه الصغيرة بميلها المبكر إلى الكتب ، وبورائها
الشعرية والبيانية ، وميل جدها جلي لحمل سلاح الجندي دون سلاح الكاتب ؟

(١) تقلب راغب باشا في المناصب وكان وزيراً غير مرة وانتهى بأن كان رئيساً لمجلس النظار .

ويظهر أن الآغا الحالي لحرم أدريس باشا كان عند التيمورية في حياته .

(٢) محمد سلطان باشا الرئيس الأول ، لأول مجلس نواب مصري .

أمر لا تيسر معرفته ، إلا للذي أطلع على ما يجمله كبير الأسرة الحالي ، أحمد تيمور باشا ، من تاريخ التيموريين قبل الهجرة إلى مصر . بيد أن المعروف عن والدها أنه كان راغباً في العلم والأدب . فألف كتاباً ضمنه خلاصة مطالعته محاكياً به سفينة الراغب^(١) ووضع لأسرته تاريخاً باللغة التركية كان في نية السيدة عائشة أن تنقله إلى العربية (نروي هذا عن أحمد باشا وقد أخبرته به شقيقته الشاعرة فيما بعد) . وجمع مكتبة نفيسة تشتت بعد وفاته كما تبعثرت أصول الكتابين اللذين لم يطبعا . على أن لذلك الفاضل أجمل أثر يحمد في تعليم ابنته والعناية بثقيفها في عصر ضنين على النساء بالتعليم والتثقيف وإن عائشة لتذكره دواماً بالشكر والتحنان ، وترثيه بعد وفاته بقصيدة ملأى بالعبرات :

أبتاه ، قد حش الفراق حشاشتي
هل يرتضي القلب الشفوق جفائي ؟
يا من بحسن رضاه فوز بنوتي
وعزيز عيشته تمام رخائي
إن ضاق بي ذرعي إلى من اشتكـي
من بعدك فقدك كافلاً برضائي ؟^(٢)

ليس هذا من مألوف الشكوى والثناء . بل هو كان لها على الدوام نصيراً منذ الصغر في جهادها ضد والدتها التي كانت تحثها على تعاطي أشغال الإبرة .

ولا يفوتنا الآن - في هذه النقطة من بحثنا - ما زلنا أيام كان أبناء

(١) مؤلف هذا الكتاب هو محمد راغب باشا تولى الصدارة العظمى في الأستانة وعاش في القرن الثامن عشر .

(٢) « حلية الطراز » .

العظماء ، حتى الملوك أنفسهم ، يتزوجون من معتوقاتهم . ولطالما استهجن كتاب الفرنجة هذه العادة ذاهبين إلى أن دماء العبيد تجري في عروق أكثرية الشعوب الشرقية . وما هي منهم إلا نظرة سطحية إذ ليس أولئك الجوار دواماً من أصل وضيع . فمنهم الكريمت أسيرات الحروب . وقد قذفت حرب المورة ، مثلاً ، إلى مصر بكمية وافرة من بنات اليونان . ومنهن الشريفات المخطوفات . ومنهن الشركسيات يبعهن الأهل مدفوعين بحب الرفعة والتقدم لأولادهم الذين إذا عاشوا في جبالهم كان حظهم محدوداً . أما إذا انتقلوا إلى بلاد أخرى عن هذا الطريق فلهم أن يتعللوا بأكبر الآمال ويرتقوا أعلى المراتب .

لست مبررة عمل الأهل ، إنما أنا شارحة إحساسهم نعم ان كثيرين من أولئك الأولاد يحلون بيوتاً صغيرة يعملون فيها للخدمة فيجيء الاعتاق متأخراً ، ويكون الزواج فقيراً والجهاز ضئيلاً . ولكن الشرع الاسلامي شديد الرفق بالرفيق ، جم العناية بحاله . ثم قد يسعد الصبي فيصير « مملوكاً » المعيا ، وتصير البنت « هانماً » غنية . ولهم أن يحلموا حتى بالعروش .

هذا من جانب الأهل . أما الأزواج فلم يكونوا يومئذ ليطلبوا في المرأة سوى خصائص الصحة والجمال الجسدي وجودة البنية . فتزيد أو تنقص قيمة الجارية بقدر ما تحوز من تلك الخصائص . فيخرجونها على أعمال معروفة كتدبير المنزل ، وأشغال الإبرة ، وفنون الرقص والعزف والغناء أحياناً . ويربونها على عادات الكبراء وعلى طريقة من الطاعة تتلاقى فيها الأنفة والاذعان .

وهناك سبب اجتماعي آخر في مصلحة الجارية ، وهو كونها بكليتها لعائلتها الجديدة . يقول الطرفاء إن آدم كان أسعد الأزواج لأن حواء كانت « مقطوعة » فظل حياته في نجوة من صولات أهلها وجولات أنسابها . والحق يقال من عيوب المجتمع الشرقي ذلك التطاول المرق الذي يسمونه

« وحدة حال » أو « يا سلام ! الناس بالناس ! » . وبه يستبيح بعض الأقارب والانسباء ما كان يجب أن يحجموا ويقفوا دونه . مسلم أن البر بالأقارب حسن ومحمود ، ولكن على شريطة ألا يكون ذلك باعثاً على أضرار العائلة وتنغيصها . وألا يكون معناه انتهاك حرمة البيت من ذلك الجيش الجرار الذي تسجبه بعض النساء الشرقيات كأنه الهدية الواحدة من هدايا العرس المنقلبة ضربة لازب . جيش يصير همه ابتداع الأكاذيب وتلفيق الروايات ، لا سيما إذا كثر الاختلاط وظهرت أسباب المنافسة والحسد . وإنما باعتدال المعاشرة والاحتفاظ بعادات كل عائلة ، والسهر على استقلالها الداخلي وراحتها وأسرارها يتحقق التفاهم بين الأقارب وتنمو المودة . أما التطاول والتهمج فؤديان إلى القطيعة حتماً وقد بدأ الشرقيون يفهمون أن البنت عند زواجها ثمرة نضجت فسقطت عن شجرتها . فأضحى أول واجباتها محصوراً في العائلة الجديدة التي تنشئها ، كما تتقيد البذرة بالثمرة الجديدة التي كوتتها تنفيذاً لناموس الخليقة . ولقد كان هذا الاستقلال العائلي ، وتقديس حدود البيت والتفرغ للاعتناء به ، والقيام بما يعود عليه بالرفاهية والهناء - من أكبر عوامل تقدم الأمة الانجليزية . كما أن نقيضه في كثير من الأسر الشرقية من أهم عوامل التقهقر . إذ كيف يتقدم وينجح من كان في حياته البيئية شقياً !

هذا ما كان ينجو منه زوج المعتوقة . وقد ذكرت « نية سليمة » قول سيدة مصرية معتوقة إنها ستبتاع في الأستانة زوجة لولدها لأن « بنات باشواتنا كثيرات الدلال . أريد لأبني زوجة بلا حم ولا حماة لأضمن سعادته » (١) .

يدرك القارئ والحالة هذه ، أن والدة عائشة لم تكن تفهم تشبث ابنتها بالكتب ، ويدرك أنها كانت تجدها شاذة فتسأل الله عليها صبراً ولها معونة !

(١) كتاب نية سليمة سالف الذكر .

غير أن الأب الحصيف قريب يسمع ويتبصر . فتقول لنا زينب فواز في كتابها « الدر المنثور » إن الباشا عندما رأى الجدل متتابعاً بين زوجته وابنته تفرس في هذه النجاسة وقال لوالدتها « دعيها فإن ميلها إلى القراءة أقرب » . وأحضر لها اثنين من الأساتذة وظل يعنى بها فما تمكنت من معرفة ألا يسر لها الأخذ بأخرى . وتشهد لنا عائشة بطفانة والدها وعطفه في مقدمة كتابها « نتائج الأحوال » حيث تقول والدتها إذ تراها عاكفة على الكتاب والقرطاس كانت تأتي :

« وتعنفني بالتكدير والتهديد فلم أزد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطريز قصوراً . فبادر والدي تغمد الله بالغفران ثراه وجعل غرف الفردوس مأواه ، وقال لها : « دعي هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، ودونك شقيقتها فأديها بما شئت من الحكم » . ثم أخذني بيدي وخرج بي إلى محفل الكتاب ورتب لي أستاذين أحدهما لتعليم اللغة الفارسية والثاني لتلقين العلوم العربية . وصار يسمع ما اتلقاه من الدروس كل ليلة بنفسه .. » .

وهي تتبسط في هذا الحديث في مقدمة ديوانها التركي والفارسي^(١) بكلام مشوق لا سيما أنه أهم ما لدينا لمسيرتها في نشأتها . فتكرر القول إن والدتها كانت تحثها على تعلم التطريز ورأيها « إن هذا المنسج هو أداة النساء وأستاذ المعارف لبنات حواء » . أما عائشة فلا تراه إلا « كالحم العنيف » . فتتابع .

« وبالرغم مما كان متأصلاً في نفسي من الميل إلى تحصيل المعارف من جهة والحصول على رضى والدتي من جهة أخرى ، فإن نفسي ما برحت نافرة من المشاغل النسوية » . « وكان من دأبي أن أخرج دائماً إلى قاعة منزلنا

(١) إني مدينة بترجمة هذه المقدمة الطويلة الشيقة لحضرة الكاتب المعروف محب الدين أفندي الخطيب بجريدة الأهرام وصاحب المكتبة السلفية . فقد عني بنقلها رغم أعماله الكثيرة خدمة للأدب .

(السلاملك) فأمر بمن يوجد هناك من الكتاب لأصغي إلى نغماتهم المطربة .
ولكن أمي - أقرأها الله في رياض الفرديس - كانت تتأذى من عملي هذا
فتقابلني عليه بالتعنيف والتهديد والأنداز والوعيد . وتجنح أحياناً إلى الوعود
اللطيفة والترغيب بالحلي والحلل الطريفة . أما أبي رحمه الله فكان يخاطبها
بمعنى قول الشاعر التركي :

« ان القلب لا يهتدي بالقوة إلى الطريق المطلوب
فلا تجعل النفس معذبة في يد اقتدارك »

« فاحذري من أن تكسري قلب هذه الصغيرة وأن تثلمي بالعنف طهره
وما دامت ابتتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق فلا تقفي في سبيل ميلها
ورغبتها . وتعالى نتقاسم بنتينا : فخذى « عفت » واعطيني « عصمت » .
وإذا كانت لي من عصمت كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي
بعد مماتي .

« ثم وجه أبي خطابه إليّ قائلاً : - تعالي إليّ يا عصمت . ومنذ غد
سأتيك بأستاذين يعلمانك التركية والفارسية والفقه ونحو اللغة العربية .
فاجتهدى في دروسك ، واتبعي ما أرشدك إليه ، واحذري أن أقف موقف
الخجل أمام أمك » . فوعدت أبي بامثال هداة ، ووعدته على أني سأبذل
جهدي لأكون موضع ثقته ومحقة أمله » (١) .

في مناقشة هذين الأبوين وتغلب الأب في النهاية ، أمثلة لكثير من
الوالدين في هذا العصر . فالأهل يقر رأيهم منذ حداثة أبنائهم في الغالب ،
على السبيل التي سيسلكون . فيقولون سنجعل هذا طبيباً ، وذاك محامياً ،
والآخر مهندساً ، وأخاه تاجراً الخ . ولو هم تفحصوا الميول والممكنات
لربما وجدوا أن المحامي المزعوم لن يفلح في غير الطب ، وأن المهندس خلق

(١) « مقدمة الديوان التركي والفارسي » .

للتجارة أو للصحافة وأن الطبيب هيأته الطبيعة لبيع الأثاث القديم في المزاد العلني . وهلمّ جرا . هذا عدا تعويد الولد لباساً وأساليب لا تتفق مع مقدرته المالية ، وبت الأطماع الجنونية فيه حيث لا كفاءة ولا حذق يؤهلانه لتحقيق الغايات الكبيرة . كثير من شقاء العالم اليوم راجع لسوء تدبير الأهل . فيصرف الأولاد الأعوام في تلمس السبيل مجهدين نفوسهم في نيل ما ليس لهم ، معذنين الآخرين وكل قلق حائر في صراع الأنانيات لتركيز الحظوظ وتنظيم المعيشة .

أما شاعرتنا فقد نعمت بأب يجمع بين الإدراك والمقدرة . فسيّرهما في هذا الاتجاه الذي تطلب نازعة عن الإبرة التي تكره ، والمنسج الذي تلقى ، حتى أنها لا تذكر تلك الأشغال النسائية إلا بالاستنكاف والاشمئزاز .

هنا ملاحظة صغيرة . لأن هذا القول عن عائشة سيزيد في تعميم الخطأ الشائع وهو أن الفتاة إذا هي أحبت الدرس والعلم ، وإذا هي برعت في معرفة أو فن ، رغبت عن أشغال المرأة وترجلت . وأنا أقول - وإني لأعلم ماذا أقول - إن هذا إلا مذهب طائش غيب . إني أعرف فتيات ونساء ينهضن من المسرات الأدبية والفنية ، بل ومن أعمق وأعوص النظريات الفلسفية ، إلى أشغال الإبرة والتفصيل ، بل إلى ما دونها من رفو ورتق ، وتدبير المنزل ومزاولة الطبخ . فيجدن في كل ذلك راحة وسلوى . ويدخلن في تلك الأعمال الوضيعة شيئاً من التفنن محولات ما فيها من خشونة إلى ضرب من الكياسة .

كذلك رأي طائش وغيب ذلك القائل أن الاطلاع والعلم « يرجلها » . انها لتضعاف بالعلم انشويتها . ومن السخافة أن يعني على المرأة المتعلمة التأنيق والزينة واللفظ . حتى أن صورة المرأة « المتعلمة » لتكاد تستحضر لمخيلة الناس عجوزاً دميعة متصلبة شرسة . ولماذا ؟ أترى الرغبة في تنوير الأذهان والتوق إلى حياة داخلية سامية ، يعني الزهد في الدنيا ، والإنقطاع عن العالم ، والانفراد للدرس والتحجير شأن الرهبان في الأديار ؟

ثم أليس من الغريب أن الرجل إذا هو برز في الشعر أو الفن أو الفلسفة ،
تأثت بعض الشيء^(١) ، بمعنى أنه يدق فكره وتصل عواطفه ؟ فكيف
تتحور العوامل التي يتأثت بها الرجل فتكون عند المرأة مدعاة للترجل ؟

لا أنكر وجود المترجلات بين المتلمات . والسبب أنهن بطبيعتهن كذلك .
وقد تجد المترجلات بين الجاهلات الغييات ، كما تجد بينهن من لا يعنيتها
أمر بيتها ولا إلمام لها بتطريز أو بتفصيل أو بتنظيم . شغلها الشاغل الزينة
والثروة والانتقال من زيارة إلى زيارة . وقد تكون كذلك دون ترجل ،
وبالعكس . فإن لم تهتم عائشة بأشغال الإبرة فإنها على غير استعداد طبيعي
لها . ولو لم تحب الكتب والكتابة لما زاولت تلك الأشغال ، ولو زاولتها
ما أتقنتها . وذلك لم يقلل من عذوبة أنثويتها الخالصة .

وعلى كل فلنغبطها على الوصول إلى غايتها . ولنصنع اليها تجربتنا باختصار
كيف أنها منذ السابعة من عمرها إلى الثالثة عشرة صار دأبها التزام الإنزواء ،
« منكبة على دروسي أجتهد فيها فوق ما كان ينتظر أبي مني . غير أن أبي
لم يكن يأذن لي بالخروج إلى مجالس الرجال ، وتولى بنفسه تعليمي كتب
البلاغة الفارسية مثل شاهنامه الفردوسي والمثنوي الشريف ، واختصني من
ساعتين من وقته في كل ليلة أقرأ فيهما عليه »^(٢) .

هذا الأب الذي يعرف أن يكون أستاذاً وصديقاً معاً جدير بكل شكر
وثناء .

(١) الإحساس الفني لا يدل على التأثت ، لأن الأنوثة وظيفة عضوية . والملكة الفنية تنشأ عن سمو

الوجدان . وهي ليست خاصة بالإناث ، بل هي أغلب ما تكون في الوجدان .

(٢) مقدمة الديوان التركي والفارسي .

أنت الشاعر ، أنت الأديب ، أنت الفنان ، أليس أنك تذكر من
أعوامك الأولى ظرفاً خاصاً ، أو مشهداً جميلاً ، أو كلمة محمسة ، أو وجهاً
محبوباً أهاج بلائلك ، وافتك إلى نفسك ، وكأنه وسع فيك أفق نور وفتح
في جنانك بركان نار ؟ أليس أن لك ساعة تفتق فيها من نبوغك البرعم الأول ؟
ولعائشة مثل تلك الساعة ! ما هو الياعث فيها على الشعر ؟ هو الوجه
الذي تسفر له المرأة المحجوبة : وجه الطبيعة . حنت الطبيعة ذات ليلة على الشاعرة
الصغيرة فتولدت في نفسها الفتية خوالج جديدة ورأت البدر منيراً والليل
جميلاً ، وكأن لصفحة السماء روحاً تحس وتناجي . دعها تلقي علينا حديث
وحيا :

« في خلال هذه المدة كنت أنظر في دواوين الشعراء وأعالج النظم
بالأوزان السهلة . وفي إحدى الليالي جاءني مربيتي بباقة ورد وضعتها في
مشريتي . وكانت الليلة ليلة البدر . ففيما أنا أمتع ناظري بذلك المنظر دعنتني
أمي إليها . فجعلت باقة الورد في أمانة البدر . ثم عدت من عند أمي فوجدتها
مبعدة فأحزنتني ذلك كثيراً .. ووضعت ناصيتي في كفي وأخذت أفكر
فجادت قريحتي ببيتين من الشعر الفارسي » (١) .

ألا يحلو لك تيقظ العاطفة على هذا النمط ؟ أتبصر معي تلك الطاقة
النضرة في نور القمر ، والبنية تستعطف البدر لأجل ما تحب ؟ ثم تعود
فترى البدر غافلاً ، وطاقة الورد مبعدة ، وتوسلها وأملها هباء ...

رمز يا عائشة ، رمز إلى ما في الحياة الممتدة أمامك ! فلا ما هو موضوع
الإعجاب والرجاء ليستجيب ، ولا ما هي نضرة الأزهار لتبقى . وإنما
الإنسان هو الذي يثق ويبتهل ويخيب ويحزن . فيؤدي به ذلك إلى تجربة
مرة ، أو عاطفة جريحة ، أو اختبار قاس !

(١) « مقدمة الديوان التركي والفارسي » .

ذاك وحيا الأول ، وهو منظر ما زال غني الوحي لقرائح الشعراء ،
ومخيلات العاشقين ، بل لجميع القلوب الحساسة . ولكن لنصغي إلى بقية
الحديث .

« وعندئذ دخل عليّ أبي فرأى ما بي من الحزن وسألني عن حالي ،
فأنشدته الشعر وأنا في خجل وحذر . وإنما كنت كذلك لأن أبي كان كلما
رأى في يدي ديوان شعر يقول لي - « إنك إذا أكثرت من مطالعة الشعر الغزلي
فسيكون ذلك سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك » .

« أما الآن فإنه لما سمع شعري أعاد كلامه الأول وزاد عليه قوله - « إن
الشعر إذا لم يكن باللغات الثلاث . العربية ، والفارسية ، والتركية - لا تكون له
حلاوة » . ثم قال لي : « إذا أتممت الكتب التي بدأت بها سأتيك بمعلمة
تعلمك العروض . وإني أتوسم فيك السرعة في تعلمه ما دامت عندك هذه
الرغبة » . فأجبت به بأني قد حصلت على قليل من معرفة النظم باللغات الثلاث .
فطلب مني أن أنظم قطعة من الشعر . فقبلت ذيله وانزويت في غرقي . ففتحت
كتاب المثنوي الشريف مستمدة من روحانية ناظمه . وبدأت أنظم على وزن
شعر الرباعيات الذي مطلعته : عزم ديدار تودار دجان ما »^(١) .

نظمت هذا الشعر باللغات الثلاث الفارسية والعربية والتركية ، وأنشدته
والدها . فضمها إليه وقال :

« إن ما فيه من غلطات اللغة وسقطات القافية ستدركينه بنفسك فيما بعد .
وإذا بقينا أحياء إلى العام القادم فإنني سأدع الكتب التي أقرئك إياها وأجعلك
تبدأين بقراءة متن (الكافية) » . ولكن لم يحل العام القادم بعد طول الانتظار
حتى تقيدت بقيد الزواج »^(٢) .

(١) و (٢) « مقدمة الديوان التركي والفارسي » .

بهذه الكلمات القليلة ذات الروح الجديدة في قدمها ، تخبرنا عن نفسها
إلى حادث الزواج الذي لا تذكره إلا بكلمة واحدة . ومن ثم تنتقل في تلك
المقدمة إلى الكلام عن ذاتها بعد مرور عشر سنوات على زواجها . أما أنا ،
فعند هذه الكلمة الوحيدة التي تغير حياة الفتاة بكليتها ، أقف طويلاً وأتأمل .
وكم كنت أود استطلاع ما شعرت به عندما أبلغت أنه تم اختيارُ ذاك الذي
سيكون زوجها . أي عواطف جاشت في نفس تلك الشاعرة الصغيرة ؟
أي حنان وخوف ؟ أي صباية وإجفال تناوبت على قلب ناظمة القصيدة
التي روت لنا الآن حكايتها مع أيها ، فجعلت هذه الأبيات العريية بين الأبيات
الأخرى من تركية وفارسية :

يا شهى الذات يا حلو اللما
ضاع عمري في عسى ولعلما
إن عددت النوح مني طالما
قد جرى دمعي بخدي عندما



إن سقى دمعي الثرى لست الملموم
مذ سقاني العبد مقدر الظلوم
ذقت حباً والهوى نار السموم
فاطف زفراي ، بخلاق السما



متُ حرصاً فيك ان قربتني
ودنا أجلي إذا أبعدتني
إن حرمت الأنس أو آتستني
فعلى كل جوابي أينما

هذا ما قالته وهي في الثالثة عشرة قبل أن تطلق لعواطفها العنان وقبل أن «يرخص لها رسمياً» أن تتخذ لنشيداً موضوعاً حياً . فأبي الأناشيد تغرد الآن في القلب الصغير اذ ترقب «وجهه» من وراء النافذة وهو داخل ؟ وإذ ينقلون إليها أخباره ؟ وأن تتصوره فيه اليوم وهو بعيد ؟ وإذ تفكر في الغد حين تكون معه ؟ ليتها دونت لنا يومياتها في ذلك العهد إذن لتمتعنا بتأثرات بريئة شهية !

.. ولكن لقد أغفلت الكتب وأسلمت الكراريس للغبار والسكون ، ولدت التلميذة المجتهدة بتهيئة الأثواب الجميلة الزاهية والحلى المتألقة الغالية . والأيام تحدد الأيام سراعاً في إتمام معدات العرس . ولقد أقبل أخيراً اليوم العظيم يوم تفتح السماء فوق المرأة مرسلتها إليها قضاء السعادة أو قضاء الشقاء .

وها هي ذي بطلتنا الآن ليست شاعرة بل هي عروس شعر في بهجة أعوامها الأربعة عشر ، تنجلي على عرش الصبا والرواء والحب . الأمل يزهر على شفيتها ، والتأثر يلهب خديها ، والرغد يسم في نظراتها ، ويخافون عليها عين السوء في مهرجان الفرح فيذرون فوقها وحواليها حفنات الملح ، كما تذر في القاعة حفنات النقود للبائسين .

ها هي ذي تسير في موكب العرس إلى بيت عريسها يتقدمها ثلة من البوليس ، وأخرى من الفرسان ، وحملة الشموع والأزهار ، والموسيقى الوطنية الشجية بألحان الناي ونقر الطبول . تتبعها مركبتها المجللة بنفيس الأقمشة ووراءها خط طويل من مركبات المدعوات . ها هو ذا بيت الفرح تحفق حوله الأعلام المصرية الحمراء ، وتلمع بينها المصابيح الملونة .. ها هم وصلوا ، ووقفت مركبتها .. وقد جاء الخاطب يستقبل عروسه ويقودها بيده إلى مخدعها وسط جلبة المدعوات ، وتراكض الخدم والآغاوات ، والأصوات والزغاريد الممزقة الهواء .

وبينما هي تبدل أثوابها وتخرج إلى قاعة الفرح لتحضر دوراً آخر من

الرقص والغناء يذهب الزوج الفتى « بزفة » إلى الجامع بين أصحابه ، لتأدية
فريضة الصلاة . ولكن ها هو قد عاد ، وجاء يقابل عائشة التي تنزل عن
درجات عرشها (كوشا) وتقف مرتعشة مسدولة الخمار ، في انتظار
إتمام الطقس المألوف ... الفتى يجثو للصلاة . ثم ينهض ويدنو من الفتاة
فيرفع الحجاب وينظر في وجهها للمرة الأولى ، ويشبك على صدرها
حلية ثمينة فتقبل يده شاكرة ويرد هو على هذه القبلة ، بقبلة على جبهتها .
ويلقي بحفنة من النقود إلى من بقي حولها من النسوة فيختفين . ويتصعد
العروسان إلى (الكوشا) فيجلسان في بهجة الفرح وسرور الأهل والأصدقاء .
وبعد هذه الليلة تستهل حياة جديدة .

وهنا نترك الشاعرة وشأنها تحيا قصيدة ليست هي نظماً ولا نثراً .

بعد الزواج

تزوجت عائشة فانتقلت بالزواج إلى عالم جديد له ما يرافقه من حرية ومسؤولية ، وما يخالطه من مسرات وغموم ، ولقد كان يشوقنا أن نقف على وقع هذا الظرف الخطير في نفسها ، وأن نستشف اللون الذي بدت لها الحياة به بعد أن اختلفت في بعض جوهرها عن حياتها في بيت أبيها .

ترى أكان لها من هذا الانتقال مستطاب الأثر أم مستنكف الخبر ؟ أكانت به محظوظة أم مغبونة ؟

حسن أن نعلم ، بفضل « الدر المنثور » ، أنها « هنالك اقتصرت عن المطالعة وإنشاد الأشعار والتفتت إلى تدبير المنزل وما يلزم له خصوصاً حينما رزقت بالأولاد والبنات » . ولكننا مضينا على تخمين ذلك وأن لم نخبر به لأنه أمر طبيعي . أمر طبيعي كذلك أن يسوقها كسواها عباب الحياة اليومية متشابهاً للجميع بمادته ، وأن تغاير حتماً لكل أمرىء بتغاير مزاجه وبتفاعل هذا المزاج والأحوال التي تعالجه ويعالجها . أما ما ولّده هذا الانتقال في الشاعرة من خوالج ، أما نسيج شعورها في تلك الأعوام السحيقة فذاك ما يظل مغلقاً علينا لولا لمحات نسترقها في ما كتبت ، ولولا القليل الذي ترضى أن تلقي به إلينا ، فتقول :

« وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الأولى من ثمرات فؤادي ، وهي توحيدة نفحة نفسي وروح أنسي ، قد بلغت التاسعة من عمرها فكنت

أتمتع برؤيتها تقضي يومها من الصباح إلى الظهر بين المحابر والأقلام ، وتستغل بقية يومها إلى المساء بأبرتها فتسج بها بدائع الصنائع فادعو لها بالتوفيق شاعرة بحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنها من النفرة في مثل هذا العمل ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها عمدت إلى خدمة أمها وأبيها فضلاً عن مباشرتها إدارة المنزل ومن فيه من الخدم والاتباع . فتسنى لي أن أنصرف إلى زوايا الراحة « (١) » .

إذا نظرنا إلى توحيدة بعيني أمها وجب أن نسلم بأنها فتاة غير عادية . وسيكون لها من محبة والدتها نصيب فوق نصيب كل من أخوتها وأخواتها ، وبسبب توحيدة هذه ستبكي عائشة كثيراً ، كثيراً .



كانت قبل الزواج قد تلقت عن مؤنس أفندي القرآن الشريف والفقه والخط ، ودرست على الأستاذ خليل رجائي علم الصرف واللغة الفارسية التي سبق فعلمنا أن والدها تولى متابعة تلقينها أياها قبيل زفافها ، مكرساً لابنته كل يوم ساعتين من وقته . ثم تلت أعوام جاءت في مطلعها توحيدة التي شبت فطنة الذهن ، يقظة الفؤاد ، فحملت على منكبيها الفتيين تبعة الإدارة المنزلية والتنظيم . فانقلب يشاغل عائشة ذلك الشوق القديم ، وعاد إليها بقوة الحب الذي ساير عمرها في الحزن والفرح - حب الدرس والمطالعة :

« حيثئذ خطر لي أن أستأنف ما فاتني في صغري من تعلم فن العروض فجئت بمعلمة » ... « ولكن لم يمض على الروع في الدرس ستة أشهر حتى انتقلت المعلمة إلى رحمة ربها . وكانت بنتي تلازم دروسنا في تلك المدة فاستطاعت - بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها - أن تلم بفن العروض أكثر من المامي به » (٢) .

(١) و (٢) « مقدمة الديوان التركي والفارسي » .

توحيدية مرة أخرى ! ترى لماذا تشغف الشاعرة بذكرها ، والإشادة باسمها ، وأظهار محاسنها ، ألما تنطوي عليه من توقد وذكاء ؟ لأنها جاءت العالم وعائشة حديثة السن فكانت الأم لابنتها - فيما كانت - أختاً كبيرة ، وكانت البنت لوالدتها أختاً صغيرة ؟ لأنها رفعت عنها عبء التدبير المنزلي وكانت ، في الوقت نفسه ، أقرب أولادها إلى تفهم ذوقها وميولها ؟ أم لاجتماع هذه الميزات في توحيدية بعد كونها البكر وهي تلك الميزة الأولى التي ذاقَت الشاعرة بها لذة الأمومة للمرة الأولى ؟

يتعلق بعض الأهل - لا سيما الأمهات - كل التعلق بأبكارهم . ولئن أردف قوم من المدعوين بعلماء النفس الذين لا تطمئن منهم الخواطر إلا إذا أوجدوا لكل سبل جبالاً يصدمه - أن هذا التعلق يخف بعد أعوام محدودة يوم يفتح الولد على الشؤون عيناً ترقب وتبرز من شخصيته الخصائص المستقلة . وأن جماعة من الأمهات يداخل حبين عندئذ بعض الكره والنكد لأنهن يرين في بناتهن المنافسات والمسابقات . هذا إذا كانت الأم من دعيات التأنق وعاشقات اللألاء الاجتماعي في الأندية والحفلات .

لئن قال بعض السادة العلماء ذلك فإن قولهم ينطبق على فئة وتتملص منه أخرى . تتملص منه وتحلق فوقه في جو المحبة والرحمة والدراية تلك الفئة الصالحة من الرجال والنساء المولودين ، ليكونوا آباء وأمهات . لأننا هنا أيضاً نجد المختارين الصميمين ، وعلى مقربة منهم يدب الدخلاء ويتحرش المتطفلون . والحالة الوالدية - كأية حالة طبيعية أو اجتماعية سواها - ان هي كيفة الأفراد فهي لا تكيف منهم سوى فطرتهم يجلبتها ورغباتها وميولها . لذلك لا تبدو بأسنى مظاهرها وأبقاها إلا في الشخصيات المهيأة لها .



وعائشة مهيأة لذلك على ما نرى من ولعها بتوحيدية - توحيدية الآلة القادرة التي تتحول بواسطتها رواكد العاطفة الوالدية عند الشاعرة تياراً

دافقاً . فهي تحب منها المواهب والحسنات وتخلق للعيوب الهزيلة تفسيراً
لا يهتدى إليه ويترجمه بهذا اللطف ، الا من استنار بنور الجنان .
هاك مثالاً لذلك :

الفتاة التي كانت تقوم بإدارة المنزل ورقابة وضع أعماله الداخلية كانت ،
على ما يلوح ، لا تقصر دون أتيان أعمال أخرى تقتضي بعض اللباقة ،
كاستقبال الزائرات والاحتفاء بهن .

فجاءت يوماً بعض السيدات (ويظهر أن الغرض من زيارتهن أن
يخطبنها ، وهي تجهل ذلك) فخفت توحيدة ترحب بهن ريشما تأتي والدتها ،
وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف « أوحشتونا » .. الا أنها كان بلسانها
لثغة خفيفة قضت بأن تجيء أوحشتونا « أوحشتونا ! » وهنا دخلت السيدة
عائشة فسمعت الكلمة التي حرفها العيب اللفظي ، فضت تشرح ذلك العيب
على هذه الصورة :

قال العواذل مذ قالت مؤانسة

« أوحشتنا » أنها تجفو وذاك غلط

لم يبدل الشين سينا لفظها غلطاً

بل لم يسم ثغرها الزاهي ثلاث نقط (١)

ومرت على الشاعرة فترة - تقول زينب فواز - فقدت خلالها والدها
(سنة ١٨٨٢) ثم زوجها بعد ثلاثة أعوام « وصارت حاكمة نفسها فأحضرت
لها اثنتين هما المام بالنحو والعروض إحداهما تدعى فاطمة الأزهرية والثانية
ستيتة الطبلابية وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت
بحوره وأحسنست الشعر وصارت تشد القصائد المطولة والأزجال
المتنوعة ... » (٢) .

(١) روى لي هذه الحادثة الصغيرة توفيق بك اسكاروس الباحث الأديب نقلاً عن فضيلة السيد
البلاوي وكيل دار الكتب المصرية ونقيب الأشراف سابقاً .

(٢) « الدر المنثور » .

يجوز الاعتراض هنا بأن عائشة نظمت كثيراً قبل تعلم النحو والعروض على هاتين السيدتين . فقد طالعنا في ديوانها مثلاً قصائد الترحيب بميلاد أخيها ، وتأبين والدها ، وغير ذلك ، وجميعه وقع قبل أن « تبرع في الشعر وتتنقن بحوره » . ومن هنا نستنتج أن استفادتها من قليل الدروس السابقة كانت غير هزيلة .

ولكن ، أليس أن ضوابط النظم تتعلق بالموسيقى السمعية أكثر منها بالقواعد المدونة ؟ والواقع أن هذه القواعد لم تكن إلا تقريراً محسوساً لتلك المطالب الدقيقة التي تجهر بها حاسة السمع ، فتليها أفراد الطائفة الواحدة كل من جانبه على غير تعاهد من الآخرين . حتى إذا أجمع كثيرون على أمر واحد عرفوا أنه حاجة أولية فعرفوه بياناً ، ودونوه قاعدة ، ترجع إلى حكمها الأجيال من هذه الطائفة . لا لأنها « حكم » بل لأن هذا الحكم يترجم عن الحاجة النفسية التي نشدتها حواس الشعراء في الماضي وستشدها على الدوام . لذلك نرى أن شعراء جميع البلدان في جميع العصور أوجدوا في مختلف اللغات - غير متحالفين فيما بينهم وجاهلين بعضهم بعضاً - بحوراً للشعر وأوزاناً وضوابط موسيقية ذات وقع لفظي في النفس (حتى لمن لا يفهم اللغة) بينا المعنى الشعري يحبو النفس بوقعه الخاص . وعوارض المغالاة والأغراق والتمسك بصيغة النظم دون المبالاة بالجوهر ، طوارئ تدهم اللغات تبعاً لحالات الأقوام ووفقاً لنواميس الاجتماع ، إلا أنها لا تنقص من الشعر دعامة الموسيقى المؤثرة .

كذلك قد يعترض بعض أهل الذوق اعتراضاً خافئاً على أن معلمة العروض تدعى .. الطبلاوية ، قائلين إنه على التي تعلم الأوزان الشعرية أن تتحل لها اسماً يتفق مع عملها ويوحى للسامع . ولكن ، أليس للطلب من موسيقى ؟ وإن لم يكن للطلب شدة اللحن والنغم ، أليس أن له موسيقى الفصل والوقع والتعريف ؟ والسيدة الطبلاوية لم تكن تلقن الشعر ، وهو ليس

بما يتلقن ، بل تعلم كيفية التمييز بين اترانه وانكساره . فاسمها بهذا متضمن
لعلمها وعملها .

وسواء رضي أهل الذوق لهذا الشرح أم لم يرضوا فليذكروا أنه أمر فائق
أن يوجد بين السيدات الشرقيات من يستطعن في ذلك العهد المظلم للنساء
أن يدرسن هذه الدروس ، في حين أن من يستطعنه اليوم نادرات بيننا وقليلات
عند الشعوب الأخرى . أذكر أن كاتباً فرنسياً كبيراً (أظن الفرد كابس
Alfred Capus) ندّد قبيل الحرب الأولى في مجلة « فينا » بالسيدات الفرنساويات
لأنهن ، بعد احصاء فئة من المتعلمات بينهن ، ظهر أن العارفات بقواعد
النظم وأصول البحور الشعرية ، يكدن لا يبلغن الخمس في المائة . فما
أعظم فضل تينك السيدتين الأزهرية والأخرى ، ولو كانت الطبلاوية ،
بما كانتا تعرفان ، وبأنهما أضافتا إلى مصباح عائشة زيتاً يعين على تغذية
نوره !

بيد أن تمتع الشاعرة بالإبنة المحبوبة لن يطول . قدر على توحيدة أن
تموت باكراً في ربيع الصبا . علة مجهولة ترقبها وتنفت في جسدها وهي
تكتم أمرها رفقاً بالتي تحبها . وها هي تسرد لنا طرفاً من حديثها المحزن :
« قبل أن تنطرح على فراش المرض فاجأتها في أحد الأوقات وهي في
رداء نومها وبين أناملها قلم تكتب به القطعة العربية الآتية :

اسمع مقالي يا أريب	وقصتي شرح مريب
قد كنت في دوح الصبى	اهتر كالغصن الرطيب
أصبحت حالي عبـرة	يبكي على مثلي الغريب
كلا ، ولا لي منهـل	أروى به إلا النحيب
فالدمع مني ساجم	والرمس أضحي لي قريب
يا ربي عجل رحـلي	وأغفر ذنوبي بالحبيب

« فلما رأتني مقبلة عليها دست رقعة الشعر تحت وسادتها بسرعة ولكني

بادرت في الحال لاستخراجها فاحتفظتها مني، ثم خاطبتي قائلة : « لا تعبئي يا أمي المشفقة بمثل هذه الثروة ». ثم قالت لجارتها « خذي هذه الورقة فاحرقها » فلحقت بالجارية وأخذت الورقة منها وألححت عليها بالسؤال فأجابني « إن سيدتي تتناول الطعام معك اذعاناً لرأفة أمومتك ، ولكن الطعام لا يبقى بعد ذلك لحظة في جوفها وهي تذهب كل ليلة إلى سرير نومها تطميناً لقلبك غير أنها لا يغمض لها جفن » (١) ..

إن نحن وجدنا هنا دليلاً جديداً على لطافة توحيدة وحرصها على راحة والدتها ، فلا يسعنا إلا التعجب كيف أن الأم الشديدة الحب لم تلمح على وجه ابنتها إشارات المرض . نتعجب - لسولا الاستدراك بأن التي ترى أن ثغر توحيدة الزاهي لا يسع ثلاث نقط فيقلب الشين سيناً قد تعثر بسرعة على عذر شعري يكتفي به قلبها لكل تغير وكل شحوب .

أما وقد ثبت أن الفتاة مريضة حتى لترثي نفسها ، فهاتوا الأطباء ، وهاتوا العلاجات ، وبالغوا في الاعتناء والمداواة ! إلا أن المقدور نافذ لا محالة . والمريضة تعلن ذلك وتلقي على والدتها كلمات التعزية والتشجيع . إنها أقبلت على عالم السر والرغبة فاستمدت منه الحكمة التي تهبط على كل من حاذاه . واستلهمت الغيب ارشاداً للمتخلفين فقامت ، وهي الصغيرة وهم الكبار ، تعظمهم بسطوة الراحل وحقه على النصيح والتوديع الهادئ : « عبثاً تدفعك الشفقة يا أماه إلى معالجة أمراضٍ فإنه قد آن الأوان . ولا مناص من تلبية نداء المنادي « كل من عليها فان » وإني أضرع إلى الله أن يلهمك صبر أيوب وأن يمنحني نعمة رضاك فيكون ذلك سبب الرحمة والتجاوز عن سيئاتي وأن يصون شقيقتي وإخوتي » .

« ثم ضممتني إلى صدرها فاعتنقنا . وبتنا ليلتنا إلى الصباح في بكاء

(١) « مقدمة الديوان التركي والفارسي » .

وانتحاب ونواح» (١) .

قضت توحيداً ، فأقامت لها الأم مناحة دامت سبعة أعوام متوالية ، فأضعف البكاء نظرها وأصابها الرمد . « وهنالك كثرت لواحيها وعواذلها من أولادها وصويجاتها » . « وأخيراً سمعت قول الناصحين وقللت شيئاً فشيئاً من البكاء والنوح حتى شفاها الله من مرض العيون » (٢) . وهذا خبر ذلك الشفاء من قلمها :

« أصبح جسمي الضعيف كأنه فاقد الحياة لكثرة أتعابي وأوصابي . ثم أنعم الله علي بالشفاء وأشرقت ظلمات كآبتي بنور وجود ابني محمود فكان فرحة بيت الحزن » (٣) .

يخيل أن هذا الفتى محمود شب على شيء من ميول توحيدية ، وكأنه قد صمم على أن يقوم ببعض ما كانت تقوم به أخته الكبرى ليفوز بتعزية والدته ويربح محبتها الخاصة . ويظهر أنه نجح . لأنه هو « فرحة بيت الحزن » الذي شرع ينصح ويؤاسي ويذكر الأم الحزينة بالآية الكريمة : « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » . وهو الذي طلب أشعارها العربية ليجمعها ، وأشعارها التركية ليطبّعها فتكون « أثراً من آثار براعتك وفصاحتك » (٤) فقالت :

« في استطاعتي أن أنظم الآن شيئاً من الشعر شكراً لله تعالى على ما وهبني من النعم أما اشعاري الماضية فكنت قد أحرقها كلها ، ولا أظن أن في مكتبي إلا الشيء اليسير منها بالعربية والتركية . وأما اشعاري الفارسية فإنها لما كانت في محفظة فقيدتي فقد أحرقتها بمحفظتها كما احترق كبدي » .

(١) مقدمة الديوان التركي والفارسي .

(٢) الدر المنثور .

(٣) و (٤) مقدمة الديوان التركي والفارسي .

« إن أملك يا بني لم تبق عندها الآن رغبة في قراءة شيء من كتب الأدب »
« وسأنصرف إلى الإنكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوي
وإني وهبتك ما عندي من الكتب والأوراق فاصنع بها ما شئت » وإذا
« رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها »^(١) .

وكان ميل محمود شديداً - وكل ابن لأم ذكية يدرك ذلك - إلى اظهار
فضل والدته بصورة عامة . فنشر الكتب وكان له بذلك علينا حق الامتنان .



في عنوان هذا الفصل « بعد الزواج » شبه وعد بشرح أحوال غير معروفة
وتبيين دقائق غامضة . وها أنا لم آت إلا ببعض الخطوط الكبرى التي استطعت
تناولها . بيد أن الشرح لا ينتهي بانتهاء هذه الصحيفة . وعندما ننظر في شعر
عائشة ونثرها وآرائها نظل مماشين تسلسل الأيام والأعوام في حياتها لأن كل
ما لدينا منه دونته إلا القليل بعد الزواج .

يخيل أن آجال الأفراد عموماً تخضع لمقدرين أكبرين اثنين : أحدهما
مداومة السير واستمرار التتابع ضمن حدود طبيعية وفي دائرة قوانين محتومة .
والمقدر الآخر هو أن يعمل المرء طول حياته - مع بعض التغير في أنواع العمل
بمقتضى الأطوار المختلفة - باختيار مسير - إن صح الجمع بين هذين النقيضين .
وكان العمل ينجز هو الآخر ضمن حدود ضربت له وفي دائرة قوانين لا يحرقها
إلا مستهتراً مفسداً على نفسه إمكان المعيشة .

جداول جداول تجري أعمار الأفراد نحو ما وراء الموت مما لا يحد
ولا يدرك . جداول يسيطر عليها ذاك المقدران الشاملان في المرض والعافية ،
في الفرح والترح ، في الأمل والقنوط ، في الرغبة والاشتياق ، في المحبة

(١) مقدمة الديوان التركي والفارسي .

والكراهة . والأصوات المختلفة المتصاعدة بتأثير هذه العوامل تكون شذو
الجداول البشرية - ذلك الشذو المطرب المشجي . وهذا الجدول من عمر عائشة
هو الذي سنسمعه شادياً في ما يلي بإيهاام كل خير ، ولذة كل قديم ، وتبشير
كل رائد ...

الفضل الرابع

بَيْعَةُ الشَّاعِرِ

بيئتنا الإجتماعية

ترى هل الحاضر الا خلاصة ما أنتمت الحياة واستهلكته من المطالب والجهود؟ وما هي البيئة إن لم تكن تلك «الخلاصة» منظمة بيد الإنسان وبمشورته أو منتظمة بحكم الأحوال والاسترسال؟ وهل اليوم إلا الماضي لغد، وهل يكون الغد إلا ماضياً لبعد غد؟

إن كل صباح وكل مساء يأتيان بمجهودهما وخبرتهما ليضيفاهما إلى ذخيرة الماضي الفسيح، وكل خيط من خيوط الزمان ينسج نسيجه في رحاب ما يمر ويتجمع ويبقى. وعندما نتقل من بيئة إلى بيئة، ومن مكان إلى مكان، ومن آن إلى آن، لن نجد أمامنا إلا صوراً مختلفة من صور الماضي الحي في كل حاضر وفي كل مستقبل.

فإذا ما ولد الطفل تلقته دائرة من دوائر الماضي التي تدعى «البيئة»، فوجد فيها بداهة ما يقوم بحاجته لأنه هو كذلك صورة أخرى من تجمع الماضي. فلا غرو أن يقوم كل نوع بنوعه ولا غرو أن تحتشد أسرار الحياة وتوَجَز في البيئة التي هي صورة مصغرة من العالم. ولا غرو أن تكون ممثلة للعالم وللحياة في أغداق نعمها ومواهبها بلا سبب على بعض أسرارها، وتكون لآخرين أقسى مثال للجور والتعسف والحرمان.

وليست البيئة من خصائص الإنسان. بل للجماذ، والحيوان والنبات

بيئتها الموافقة لنموها ، الملائمة لطبيعتها . إلا أن الإنسان قد يكون في بيئته الحسية يقوم بكل فرائض مرتبته الاجتماعية ومطالبها ويعد فيها من السعداء أو من البؤساء ، ويظل في داخله شاعراً بشعور غير هذا الذي يحسه الناس عليه ، ويرتبونه بموجبه . قد يكون جائعاً وهو يقيم الولائم ، سائراً في القفار وهو يتخطر في الحداثق ، مستعظياً متسول الفكر والعاطفة وهو كثير الفضل والمنح . وعلى نقيض ذلك قد يشعر بأجنحة الحرية تصطفق في نفسه وهو مكبل بالقيود والأصفاد . وقد يلمس مكنن مقدرته وهو في أدنى دركات العجز . وقد يتضح في وجدانه أعلى نهج للمعرفة والحكمة وهو أमी جاهل لا يدري ، بموجب تعريف البشر ، الفرق بين اللغة والفن ولا ماذا يميز بين الموسيقى والكيمياء .

٤٠ البيئة الاجتماعية هي دائرة الانسان الاجتماعي . إلا أنها لا يأبه لها الانسان الخفي في الانسان ، الذي كثيراً ما يحتاج إلى بيئة غير هذه ، ويختار أقاربه وعشراءه وأحبابه مختلفين تمام الاختلاف عن الذين تجعلهم البيئة والحياة أقاربه وعشراءه وأحبابه . وفي هذه البيئة المعنوية صورة أخرى من الماضي الباقي . ولكم أتمت الحياة نفسها بحصر هذه المناقضات في شخص واحد ! ولكم خلق الماضي لنفسه مستقبلاً جميلاً من لهف الحرمان ، وزفرات الأسى ، وتجمد الدماء التي لا تسيل !



وعائشة ابنة ذلك السري الوجيه والموظف الكبير الذي ، بعد تقلب المناصب أيام عباس الأول وسعيد واسماعيل ، انتهى بأن يكون رئيساً للديوان الخديوي - عائشة لم تفارق مرتبتها الاجتماعية بزواجها من محمد بك توفيق نجل محمد بك الاستامبولي الذي كان حاكماً في السودان . ظلت في تلك المرتبة تتمتع بما هيأت لها بيئتها من رغد حسي ، وتعاشر مثيلاتها نساء العظماء والكبراء . ولقد ذكرت عرضاً في أواخر كتابها « نتائج الأحوال » شيئاً

عن اختلاطها بالبلاط ، وذلك لشرح كلمة. « واي واي أي غوث وأنا أي شيدرتوانا ، التي تقولها الأعاجم حين ما ترمى بهول فجأة . قالت :

« ... كانت تدعوني ربة المعالي وكتر اللآلئ والددة صاحب السمو اسماعيل باشا الخديوي السابق تغمدها الله برحمته ومنحها فسيح جنانه - بالقصر العالي للترجمة عند حضور أقارب ملوك العجم . فكنت أسمع هاته اللفظة من أفواههن . وهي كلمة تقال عند مفاجأتهن بشيء ما . وكنت أقيم معهن على قدر اقامتهن وأتسامر معهن وأستفسر عن عوائدهن وأخلاقهن » .

في هذه الأوساط تجد ما ألفته من كياسة وتهيب ، وما أحسنته من آداب المحادثة والمجاملة واللفظ . على أن أولئك السيدات لا يعنين بغير الشؤون المعتادة في العائلة والاجتماع وما أفعمت به من مسرات وأحزان . أما عائشة فشأنها شأن العاشق الذي تبدو له جميع محافل الأنس والطرب مقفرة لتغيب الحبيب عنها .

في تلك المرتبة الرفيعة فخامة الصروح ، وضخامة الألقاب ، وأبهة المظاهر ، ولكنها فيها يعوزها القوت ، ويعوزها السرور ، وتعوزها الحرية . إنها تتوق إلى الاختلاط بالذين يعرفون ما تعرف ، ويفكرون بما تفكر ، ويحبون ما تحب . في الخارج حركة التطور تجري مجراها الطبيعي ، وإن وثبت حيناً ، وتريث حيناً . وفي الأفكار غليان ، وفي الحماسة فتوة ، وفي القلوب أشواق . ولا تخلو المدينة من دوائر علمية يتحاضر فيها أهل الفضل على طريقة العصر ، ويتناقش فيها الأدباء كأنهم في وفاقهم وفي اختلافهم أعضاء الأسرة الواحدة . ولكن عائشة المعنية إن هي تجاوزت نساء عصرها بالمعرفة والفهم ، وسبقتهن باقتحام عواطفها وتقديم مطالبها ، فإن عائشة الاجتماعية تظل مخدرة محجوبة .

صدمتها الحياة للمرة الأولى في النضال مع والدتها بين الكتاب والإبرة . فأيدها الوالد الحصيف وسيرها إلى ما تريد وجرت خطوات في فرجة الأعوام

فإذا بصليمة أشد وأصلب ، صدمة العادة والتقليد . هذه لن يحميا منها
الوالد القادر ولن تخرج عليها نفسها القلقة . أخبرني كيف تنور على جماعتها
امرأة هي ابنة رجل معروف وأم أولاد محبوبين ، وليس بين جماعتها
صوت ينكر تلك العادة ويدعو إلى تغيير ذلك التقليد ؟ يومئذ كان قاسم
حدثاً ، ولعله كان من دعاة الحجاب . ولعلها هي كذلك لم تفكر في وجوب
السفور . بل عمدت إلى تلك العلامة الأخرى من علامات التبوغ ورضيت
بها : الاحتمال حيث لا منفذ غيره .

امتثلت واحتملت . ولكن حتى للاحتمال والامثال ساعات لا مندوحة
للمرء فيها عن أن ينفس كربته ، ويندب حسرته ، ويرسل ما هو أشبه
بينة السجين المظلوم . فقالت إنها دعها :

« الرأفة بكل مغبون لقي ما لقيت ، ودهي بما به دهيت ، إلى أن أبداع
له أحدى تسليه عن أشجانه عند تراحم الأفكار ، وتلهيه عن أحزانه في
غربة الوحدة التي هي أشد من غربة الديار »^(١) ...

هذه الكلمة تكفي لشعر مع عائشة بوحدتها المضاعفة . وهذه الكلمة
وهي لوحة تصويرية تامة ، تدهش عند امرأة سبقتنا بثلاثة أرباع القرن .
وغريب أن تهتدي يومئذ إلى حقيقة تلك « الوحدة » وأن تعبر عنها ، وهي
ابنة عصر التطويل والتبسط ، بهذا الإيجاز البليغ .

وكانها مرة أخرى تجد بعض الراحة في شرح ألمها بشكل الاعتذار المجلل
بالسجع والتورية :

« ... لم يمكن لي دخول محافل العلماء المتفقيين » ... « فكم التهب
صدري بنار شوق إلى محافلهم اليوانع ، وأدر جفني على حرمانني من اجتناء
ثمرات فوائدهم در المدامع . وقد عاقني عن الفوز بهذا الأمل حجاب خيمة

(١) نتائج الأحوال .

الأزار ، وحجني قفل خدر التأنيث عن سناء تلك الأقمار . وأحلاني بسجن الجهل حليف أثقال واوزار . فكانت تلك الحجب لمن لام في هفوات هذا المسطور أكبر أعذار . فلا تلوموا معشر الأفاضل خيبة ، ولا تعبثوا بسجينة شجية ... » (١) .

... وخصوصاً ... لا تلوموا معشر القراء في هذا العصر كاتبة مسجعة . لأنكم لو رجعتم إلى ما كتبه بعض « كبار » النثرين في عهد الخديوين لعثرتم على ما ليس فيه شيء من أحكام عائشة ولا ذرة من صدق عواطفها . ولي من هذا البيان معارض لما جاء في جريدة « الأفكار » الصادرة يوم ١٣ مارس ١٩٢٣ ، استهلاً لمقال عن الصالونات الأدبية في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وعلاقة الآداب في تلك البلاد بالدوائر النسائية الفكرية . قالت « الأفكار » : « كنا نريد أن نكتب شيئاً عن السيدة عائشة تيمور باعتبار أن تاريخ حياتها يفيض النور على الحركة الأدبية الفكرية في مصر في عهد اسماعيل وتوفيق . ولقد أجهدنا أنفسنا على غير طائل وراء الحصول على وصف ولو مجمل أو غير دقيق للدائرة الأدبية التي ظلت سنين عديدة تجتمع بلا انقطاع في منزلها (بدرب سعادة) . ولكننا سنتكلم عن سيدة انكليزية (ليديا وايت) تشبه السيدة عائشة تيمور من حيث جعل منزلها ملتقى كبار الكتاب والشعراء في عصرها » ...

من أين جاء كاتب هذه الفقرة بمعلوماته ؟ أهو استند على قول عائشة : « صرت أتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك فأجد صرير القلم في القرطاس أشهى نغمة ، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة » ... وهي تعني بذلك أيام اختلافها ووالدتها في حداثتها القصوى قبل أن تتحجب ؟ أم هو رأي ما قد يشير إلى ذلك في القصائد العربية والتركية التي رثت بها بعض العلماء ؟ أم لديه دليل آخر ؟

(١) نتائج الأحوال .

حاولت الاستفسار عن ذلك من المسيطرين على « الأفكار » في ذلك الحين ، فلم أظفر بالجواب الشافي . وتيمور باشا الذي قال قبلئذ إن شقيقته كانت « محجوبة » أجاب على السؤال الجديد بقوله إنه يظن « أن ذلك لم يحصل » .

أسافرة كانت عائشة - أحياناً - ، أم محجوبة دواماً ؟ نقطة في غاية الأهمية ولكن يتعذر جلاؤها ، خصوصاً بسبب تباين السن تبايناً كبيراً بين تيمور باشا وشقيقته . فإذا جاء يوماً من يثبت بالحجة الناصعة سفور عائشة في تلك المحافل الكريمة سجل للشاعرة فضلاً جديداً وشجاعة فائقة ، وأظهر أنها بشير التحرر النسوي ليس الوجه النظري والعلمي فحسب ، بل بالعمل كذلك . لأنها تكون قد حققت قاسماً قبل أن يتكلم قاسم .



أما وأندية الرجال ليست ، في الظاهر ، لشاعرتنا فلتتحول إلى اللاتي قد تفاهم معهن من النساء . وفي مقدمتهن « ربة الأدب الباهر والقدر الشريف السيدة وردة بنت الفاضل الشيخ اليازجي نصيف » فإن عائشة لتمثل بها وتذكرها بإعجاب في ديباجة « حلية الطراز » . وأهدت إليها نسخة من ديوانها بعد صدوره . فشكرتها « وردة العرب » ثراً ونظماً ، وأعقب هذه الصلة الأولى تبادل بعض الرسائل أثبتتها زينب فواز في كتابها « الدر المنثور » . لن نجد في تلك المراسلة كل الحياة التي يودعها بعض الأدباء في رسائلهم حتى ليتغذى بها أصحابهم أياماً وأسابيع ، ويتعشقونها كأنها قطع من أرواحهم . بيد أنك ستجد سبك الكلام اللطيف ، والثناء المأنوس ، والنظم الحلو الرنان الذي يرضي ويجعلك شاكراً لهاتين السيدتين ما أبرزتا لك من أسلوب المجاملة النسائية الكتابية في ذلك العصر ^(١) .

(١) السيدة وردة اليازجي صاحبة ديوان « حديقة الورد » هي مع عائشة ، الشعاع الأول في ظلام الحالة النسائية في الشرق .

وهناك سيدتان قيل لي إنهما كانتا تقولان الشعر وهما ابنتا حبيب أفندي الكتبخدا ، ومن عشرات الشاعرة . لم أوفق إلى شيء من آثارهما وقد قل من سمع بأداهما بين المصريين . حتى أنني قيل لي مرة عند ذكرهما أنني أبتدع شعرهما في مخيلتي على نحو ما فعل زفس بابنته بالاس - أثينا التي أخرجها من رأسه تامة الجمال والكمال . لا شيء من ذلك . بل قال لي أحد الفضلاء إنه قرأ لإحدهما أبياتاً جيدة .

ومن معاصراتها الست المغربية والبون بينها وبين عائشة شاسع جداً طبقة وحالة ومعرفة . إلا أنها كانت امرأة ذكية ، سريعة الخاطر ، تمازح الناس بشيء من الجرأة المتطرفة ، وتتطارح الأزجال مع الشيخ علي الليثي وغيره . ومن المأثور عنها من دلائل سرعة الخاطر أنه اتصل بها يوماً أن أحد الباشوات كان يرميها بما هو غير حسن وغير ممدوح . فأجابت المغربية بابتسامة ذات معنى خطير : « والله كلام سعادة الباشا في محله » ...

كذلك نعرف زينب فواز السورية المولدة المصرية الموطنة ، منشئة « الرسائل الزينية » فضلاً عن فصولها الأخرى وقصائدها . وهي التي عقدت في كتابها « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » فصلاً مطولاً عن شاعرة آل تيمور . وصدرت الكتاب المذكور بخطاب من السيدة عائشة مثلث بالثناء والتبجيل من نحو ما كانوا يثنون يومئذ ويبجلون .



ويحدثنا « المقتطف » في عدد يونية ١٨٩٧ عن السيدة ليلي هانم « كريمة المرحوم خليل باشا شريف من وزراء الدولة العلية ، وأخي المرحوم علي باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين السابق » . فيقول إن هذه السيدة « تكتب بالإنجليزية مقالات تنشر في أشهر المجلات » وإنها كتبت رواية غرامية اسمها (A Turkish Love Story) ترجمها محرر « المقتطف » ونشرها متتابعة في المجلد السادس والعشرين سنة ١٩٠١ باسم « رواية أمينة » .

قرأت هذه الرواية بثوبها العربي بكل سرور في العام الماضي . ولا شك عندي أن الوصف فيها « لحريم » الاستانة يومئذ أصدق من كل ما كتبه الافرنج في هذا الباب .

ولست لتقصر يقظة المرأة على الكتابات والأديبات بل للمهمات بالشؤون العمومية عن غير طريق القلم أثر قيم . لذلك يتسع المجال هنا لذكر المغفور لها البرنس عين الحياة ، الزوجة الأولى للسلطان حسين (يوم كان أميراً) ، ووالدة البرنس كمال الدين حسين . فإنها كانت معروفة بالمقدرة والفتانة وحب السعي الحميد . ومن مآثرها الخطيرة الشأن « مبرة محمد علي » أول جمعية خيرية للسيدات المسلمات ، بيد أنها لم تشهد نتيجة ما دعت إليه . ولم يتم إنشاء المستوصف الأول الذي أطلق عليه اسمها وما زال معروفاً به « مستوصف عين الحياة » إلا بعد وفاتها في أوائل ١٩١١ . أما الغرض الذي عينته لنفسها هذه الجمعية فهو « العمل جهد الطاقة - أولاً لتقليل عدد الوفيات الجسيم من الصغار في القطر المصري . ثانياً لتقليل عدد وفيات الأمهات الناجمة عن حميات النفاس » .

وماذا أقول عن البرنس نازلي الملتبة ذكاء ، البارة في الموسيقى وفي اللغات التي عرفتھا ، الخارجة على عادات زمنها بمقابلة من شاءت من أفاضل الرجال والتدخل في مختلف الشؤون العالمية والحوادث الوطنية . ولقد نشر المرحوم ولي الدين يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » صورة خطاب أرسلته إلى عبد الحميد في أيام بطشه وجبروته . وحسب القارئ الاطلاع على هذا الخطاب ليعرف ما كانت عليه من الجرأة والذكاء والنزعة الاستقلالية . قالت تخاطب صاحب الجلالة اليلدزية الرهية :

القاهرة في ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦

مليكي

قرأت مع الأسف الشديد في جرائد أوروبا التي وردت في هذا الأسبوع

أن مولاي الأعظم غاضب عليّ غضباً شديداً . وعلمت أن السبب في غضبه
حضورى مؤتمر « تركيا الفتاة » الذى عقد بباريس . ولهذا أرجو الإذن لي
ببيان ما يدور بخلدى فى هذا الباب :

إن استهدا فى للغضب الملوكة ليس بالأمر الحادث . ولكنه مستمر منذ
أربع سنوات . وإذا وجب أن يميز من حل بهم ذاك الغضب سهل تعيين الفئة
التي ينبغي أن أحشد فى عدادها . غير أن حضورى مذكرات هذا المؤتمر ليس
تذرعاً للشهرة . فهو إذن منزّه عن كل غرض ذاتي .

يذكر مولاي الأعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف :
« إني مغرم بكلمة الحق » . ولقد بشرني المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا
كلانا منذ ذلك أن لا نحيد عن كلمة الحق .

قرأت ما ينشره هذا المؤتمر منذ زمن مديد وأطلعت على اللوائح التي
رفعها إلى الأعتاب الشاهانية . ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة حق
في وصف الدمار الذي باتت فيه الممالك المحروسة الشاهانية ، رأيت أن
أحضر مذكراته عند نزولي بباريس .

فشهدت من الجميع منتهى الود والولاء للمقام الملوكة وللوطن والأمة .
ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذي بات على شفا الفناء . فهاجني
ذلك وتذكرت أن مولاي كان مغرمًا بكلمة الحق ، فظننت وأسفاه أنه
ربما تسلى عن ذلك الغرام . ولكن هز قوادي ما عاهدت الله عليه وأيقنت
أن العشق يزول والعهد يبقى .

ولما زرت الأستانة منذ أربع سنوات أوصاني بعض المقربين بأن أرفع
إلى مولاي عريضة استقيل بها من هفواتي ولما لم يكن لي علم بهفوة سبقت
لي لم أقدم على هذا الأمر . فقد تغيرت سياسة مولاي مع الإنكليز . وذهب
الرضاء الذي كان توسط لي في نيله المرحوم السير هنري لا يرد : وأناي
لأتلقي بكل ارتياح توسط الإنجليز في إحراز رضاء مليكي . بل أشكر اليوم

ما أصابني من الغضب الملوكي . وإن في بعدي عن مشاهدة ما وقع بالأستانة من الزلازل وما نزل بالرعية من الفقر ، وما جرى من دماء المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية ، وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم ما يسليني وما أحمد الله على بعدي عنه . وسأستمر لذا على العمل بنص الأمر الملوكي الذي بلغتنه الحكومة المصرية غير رسمي - ما دامت لي الحياة .

على أني لا أبرح داعية بطول عمر مولاي وبقاء دولته . ولا أبرح داعية بأن يعود له سالف غرامه بكلمة الحق . فإذا قدر الإله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة . فيصبح سعيداً مهناً . ويلقى رعيته في رغد بالاتحاد والحرية فإن رعيته لا تريد منه إلا أن يكون أباً مشفقاً . ولعلي تجاوزت الحد وأسأت البيان . فلست أدري مبلغ وقع ما أتشرف بعرضه . فليثق مولاي أن كلام أصدق عبيده في زماننا هذا لا يختلف عما جرى به قلبي . وليوقن مولاي أن ورقتي لم تسطر إلا بخالص النية وصادق الولاء (١) .

خادمتك نازلي

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصري

يجب لتعلم قيمة هذه الرسالة أن تعلم من هو عبد الحميد ، وكيف كان ينتقم من مناهضيه في أية بقعة كانوا من الأرض فكيف بهم في مصر ومن أعضاء الأسرة المالكة .

قد يفوتني أسماء أخرى معروفة . وقد يكون ثمة سيدات كثيرات ذكيات قديرات من اللاتي يدمجن في « الطراز القديم » وقد يدهشن العالم والمحنك بأسلوب إدارة بيوتهن وأعمالهن وأملاكهن لوفرة ما يبدن من الخبرة والدراية - حتى ولو كن أميات . ولكن أكون لمثل عائشة من مثيلاتهن بيثة معنوية ؟ .

(١) عن « المعلوم والمجهول » جزء أول . وقد قدم ولي الدين بك هذه الرسالة قائلاً أنها منقولة عن جريدة « حذام » التي كان يصدرها شقيقه يوسف بك حمدي يكن .

بيئتها المعنوية

لم يكن للشاعرة من بيئتها الاجتماعية البيئة المعنوية المطلوبة . ولا أظنها نعمت من ذلك العصر بما نحن اليوم نفتقر إليه .

ما سمعت أديباً يذكر أهمية المحيط ومبلغ تأثيره إلا سمعت منه الشكوى . ما حدثني مطلع على شؤون الشبان العائدين من أوروبا إلا قال أنهم بعيد و صولهم يشعرون بنقص علمي عظيم حولهم ، ولا يلبثون أن يفهموا أنهم عاثشون في وحدة فكرية وفنية بعيداً عن تواصل الحركة الذهنية في العالم . ولا يعرف مرارة تلك الوحدة وصقيعها إلا الذي أرغم على تقطيع الأعوام والأعوام تبليه في أنفراد ووحشة . لا يعرفها إلا الذي صرف الأيام والليالي جائعاً عطشاً ، وهو يعلم أنه في قفر لن ينبت له في القريب العاجل قوتاً ولن تفجر له منه المفاوز منهاً .

حال محزنة حال التائق إلى ما يعلو على العيشة الملامسة الثرى . حال محزنة حال الأديب الصميم في عصرنا والمتأدب . إنه سرعان ما يتصدى له من يناقض ويعاكس ويتمطى ليقدم له ويؤخر ، ويفصل في قماشه ويخيط ، وسرعان ما ينبري له وللعالمين من يقدر ويهجو لسبب أو لغير سبب ، أو لسبب جدير بالتقدير . وسرعان ما يسمع المدح المائع المتهدل لا أعترافاً بالأهلية ، بل عن هوس ، أو حمق ، أو لغاية . وقد يجد من يمتدح بإخلاص ولكن ببلاهة فيجعل الذبابة فوق النسر ، أو يسيرهما في

فلك واحد لأنهما يطيران وكلاهما من « ذوات الأجنحة » (١) .

أما تجانس الخواطر ، وحب الآداب ، وسعة الإدراك في تحليل الأشياء وتقديرها ، والأحكام في وضعها وتربيتها ، والغوص في المعاني الواسعة ، وفهم مناحي الحياة والعناية بخصائصها كما هي لا كما يراد حصرها في شخصية واحدة - كل تلك الغبطة المعنوية التي نطلبها بأشواقنا ولا نحسن التعبير عنها ، فليست بعد لنا . وهي مفقودة في هذه البلاد . بل ندر الذين يفهمون ارتفاعها ونبيلها من الأفراد .
وأولئك هم المعذبون .

وستبقى هذه الحياة مفقودة ما بقي التعاطف الأدبي غير موجود . وإذا طرح اليوم متحمس النداء المستثير فكأنه يستنهض أنبثة تضطرب وتتحرك في مكانها وقد حظر عليها الخطو والانتقال . وتمضي الصيحة الرجافة فترتطم نبراتها في الهواء ثم ترتد على مرسلها ثقلاً باهظاً كأنما يعترضها المضي جدار كثيف تحتق عند الأصدقاء فترتد على قلب مرسلها ثقلاً يجر معه معاني المحال وانقطاع الرجاء - إلى حين .

والمدح بعد كل هذا أن نجد منا من يشب وينهض ويتفوق . يتفوق ليس على قياس مدح المداحين ، وهجو الهجائين ، ومسيري الذبابة والنسر في خط واحد . بل هو يرتفع رغم المثبطات فوق الصدمات والموانع . .

يرتفع ويبدو عظيماً وكأن اسمه وحده يكفي ليقول . « إني موجود وأثري متسرب إلى جمودكم ليقبله حركة ! .. إني موجود ، وحميتي ماضية

(١) كأن عائشة شعرت بهذا في أيامها وأرادت الردع عنها بقولها :

الناس شتى في الصفات فلا تَكُنْ

ممن يقيس الدر يوماً بالـ_____برد

إن قست فظاً بالريقت فلا تـ_____لم

من بعد نفسك في الـ_____ورى أبداً أحـ_____د

في خمولكم لثيره نهوضاً ! .. إني موجود ، وعزمي متغلغل في قلقكم
لينسقه انتظاماً ! « قلت مدهش ذلك ؟ كلا ، بل هو خطير !
أليس أشد دلائل القوة خطراً في أن يظل النسر محلّقاً ولو مهشماً
دامياً ؟ . أن يظل محلّقاً . حتى يجناحين مهشمين دامين ؟



ولعل الحياة تحتال على بنينا ، لا سيما الأصفياء منهم عندما توسعهم
مقاومة وتشبعهم تعذيباً ؟ لعلها تودعهم حاجات ومطالب تعلم سلفاً إنها
غير مهينة لها ما يقوم بها ويحققها . وما ذلك إلا لتلح على الفرد الموهوب
أن يجني المعونة والتعزية والقوة من أعماق وحدته ، من أعماق وجعه ،
من أعماق قنوطه ! لعل لها غرضها من المنع والحرمان فيظل لابنها المختار
أن يخلق لنفسه عالماً يملأه ببرايا هواجسه وبأشباح ما يحب ويأمل وينشد .
يظل له أن يبدع ما ينقصه إبداعاً ما ، أبداع التخيل والتدوين ، فتكون
الحياة لذاتها عن هذه الطريق صوراً جديدة من لهف الحرمان ، وزفرات
الأسى ، وتجمد الدماء التي لا تسيل ؟

أم لعل الحياة في أحشائها كلوم يعوزها البلسم ، وهو لا يستخرج
من شكوى البؤساء . فتخلق لهم المحن لتسمع مثل هذه الزفرات التي ترسلها
عائشة في خلوتها :

أعلل نفسي والأمني كثيرة
وما كان أغنى النفس عن ذا التعلل
فلا الوقت في أمري فأقضي مآربي
ولا الدهر يصفو لي فأكد عذلي
ولا النيل يدنو لي فأروي بفيضه
ولا الصبر طوع لي فتحلو الحياة لي

ولا الحظ ذو سعد ولا البخت مسعف
ولا مهجتي صلد أقول تحملي
ولا لوم إن وارىت في التراب جثتي
وقلت اقيمي حيث ذلك منزلي

أي أنها تجبذ الانتحار في هذا البيت الأخير . ومن ذا الذي لا يشتهي
الموت في بعض لحظات الألم ؟ . ثم تعود إلى طلب المسرة والهناء ، ولكن
لتلقى خيبة أخرى :

والله ما همت حظاً باسم داعية
إلا وأعقبته فيها الهم من أسفسي
ولا سعت بأقوى العزم في أرب
إلا رجعت طريح الأرض في دنف
أو لترى السرور يتحول إلى الألم شأن كثير من مسرات الحياة !
وما منحت بيوم قد أتى غلطاً
بالأنس إلا وقامت فيه غاراتي
ويظل الاختبار يحذر وينذر :

لا تفرحن بدنياً أقبلت وصدفت
بكل ما ترتضي ، وأحذر عواقبها
وترقب أحوال الناس فيسوؤها منها الخلل والفساد :
حسن الوفاء وصدق الود قد صرعا
واستوحشا بفيافي الغدر وانصدعا
كلاهما من سقام لا مساس له
حزنا على الحق والإنصاف مذ صرعا

وأولئك الادعياء الناعتون نفوسهم بما ليس فيهم ، المتلمظون لأن الفرص
سنت لهم ضللاً بأن ينزلوا الأذى بما يحيط بهم . وهم يحسبون واجب
البشر كله في أيقاف الجهود على أشباعهم وأرضائهم - كيف تذكر أولئك
أن لم يكن بلهجة الازدراء والأخطار هذه .

آل الغرور لقد ساقوا نجائبهم
شرقاً فغرباً فداست كل ما لاقت
ظنوا الزمان على رغم يطاوعهم
وأن أوقاته طوعاً لهم راقست
وليس ألا عدوا سوف يفجأهم
برقط غدر إلى عاداتها اشتاقت

ألا يذكرك هذا البيت ، لا سيما الشطر الثاني منه ، بالمعري وآرائه
في الدهر وعربدته على الدنيا التي كثيراً ما يشبهها بالحية الرقطاء ؟
وهكذا تجد عائشة الألم عوضاً عن الهناء . وليست الآلام الملموسة
البارزة انكأ الآلام . بل قد نفضل أحياناً أن نصاب بما يسحقنا ويجرفنا
بشدة جرف العاصفة لأوراق الخريف ، بدلاً من معاناة ما نسكت على مضضه
مما نأنف التفكير فيه ملياً ، ونستكف شرحه مع عجزنا عن مقاومته والإبتعاد
عنه .

ولربما آثرنا الداهية الدهماء تعبت بنا فتذرنا هباء ، على مقاساة نكال
متقطع متتابع كوخز الأبر . نكال لا هو يشتد فيقتلنا ، ولا هو يكف لحظة
لنتخدر . ولا يكون عقاباً على ذنب فنثوب ونفادي . بل كثيراً ما يجيء
مكافأة على الحسنى فيفعم القلب مرارة .



اجتمعت في أوائل مايو ١٩٢٢ بالأستاذ الشيخ الغمراوي المفتش الأول
للغة العربية في وزارة المعارف . فذكرت عائشة فقال : « إنها شاعرة عصرها
وإن أساءوا فهم كثير من معانيها » قلت « مثلاً ؟ » فقال : مثال ذلك قولها :

ما ضربي أدبي وحسن تعلمي
الا بكوفي زهرة الألباب

فما يفهمه الشخص العادي من هذا البيت أنها تمدح نفسها مدحاً يشبه
الذم . وما ذلك ألا لقصر النظر أو لتعمد . في حين هذا القول يقرر أمراً
واقعاً تأملت من جرائه . ذلك أن بعض السيدات كن يسمعن عليها الثناء
الذي لم تربحه بالتظاهر والتهويز بل بالكفاءة والكرامة . فيثور منهن الحسد
فيعمدن إلى تشويه الحقائق . والتحريف والتعريض . يشعرن بالقصور عن
مجاراتها فيستسلمن لتعديدها وألحاق الأذى بها على مختلف الأساليب إنتقاماً
لنفوسهن من تفوقها . فشعرت بهذا وتأملت . لذلك قالت « ما ضربي أدبي الخ » .
هذه خلاصة كلام الأستاذ وهو من الصحة بحيث تجد له طائفة من
الأدلة في شعر عائشة كقولها :

وكم حليفة سعد اذ تعنفني
تقول سعيك مذموم النهايات
فاخفض الطرف من حزن أكابده
وأهمل الدمع من تلك المقالات

واها لتلك الدموع ! تنصب في القلب عند كلام الحاسد والمتطاول ،
وتدفع إلى الشاؤم في نبالة الفطرة البشرية ، ثم تنهمر في الخلوة لاذعة محرقة .
على أن عائشة عذبة بطبيعتها فهي لا تثور سريعاً . بل تتجلد هنا وفي معاكسات
أخرى وتكافيء الشر خيراً حتى نفاد الصبر :

ومذ أتت عذلي تبغي مصادرتي
ظلماً منحتمو أسنى الكرامات
وكلما عددوا ذنباً رميت به
بسطت للعفو راحات اعترافاتي
وكلما حرروا منشور-مظلمتي
وأظهروا في الورى غدرأ جنائياتي
أظهرت شكري لهم بالرغم من أسفي
وكان ما كان من فرط التهاباتي
واها لتلك النصال تغمدها في القلوب أيادي الغرباء وأيادي المعارف
والأصدقاء !

واها لتلك الأيدي التي أحسنت إلينا ، ولتلك الأخرى التي أحسنا
إليها ، تمتد لتأتي إشارة تمحو جميل الذكرى حيناً وتحجب رقيق الشفقة
دهراً !

وتلك الكلمات الفاترة الركيكة وذلك الترفع المصنوع الحقير ! وتلك
العناية التي سرها التقليل ! وذلك الشرح للثناء في الظاهر وكل الغرض منه
التصغير والتحديد السخيف !

وتلك الشبكة الواسعة التي يحبكها حولك الاغتياب والافتراء ويلصق
بك ما يلصق من التهم والذنوب ! فتفكر أولاً في الدفاع عن نفسك أمام
الذين تحسبهم أفطن من غيرهم وأقرب إلى الانصاف . وبعد قليل تصمم
على السكوت كبرأ وازدراء . ذلك ما تعنيه الشاعرة :

ولم أفه لذوي رد لمعرفتي
إن الحبيب حبيب في المســــرات
طبعاً . هم كذلك أصدقاء المجتمع ، الأصدقاء السطحيون والآخرين

المتقصدون في أثواب الأصدقاء والمتكلمون بلسانهم كيف يركن إليهم .
لذلك :

أخفي الأسى ان حسود جاء يسألني
لأين أسعى ، وأومى لابتهاجاتي

وقد تخفيه احتشاماً وصيانة لكرامة الألم ، وقياماً بالواجب الذي
يمتته أولئك الذين يكرهون الناس أكرهاً على مخاشنتهم ومقاطعتهم لأن
الجفاء الوسيلة الوحيدة للتخلص من تطفلهم . يزعمون الناس بلا مراعاة
فيخسرون حتماً عطف القلوب . يتجاهلون أن لكل شيء حداً طبيعياً ، وأن
أعصاب بني الإنسان ليست من حديد . فلا تحتمل النواح والشكوى والإلحاح
والمضايقة إلا لحين . وإن واجب المرء الأول نحو صحته لا سيما وأن له
من مسؤوليته وشؤونه ما يتحتم القيام به أن يرضى بكل تأثر مضمّن وأن يقلع
عن كل اضطراب عقيم .

إن التحدث بالهموم وشكوى الغموم مرض شرقي متأصل . وكأننا
أقرب الشعوب إلى رجم الآخرين بآلامنا وأوصابنا في كل زمان ومكان .
وليس أدل من هذا على الضعف المعنوي وضعف الخلق .. ليس أدل من هذا
على الحاجة إلى التهذيب .

وكأنني بعائشة مطبوعة على هذه الصيانة الخلقية والكتمان النبيل فهي
تقول :

أقوم والضيم تطويني نوابه
طي السجل ، ولم أسمع أُناتي
إن ضل سعي فهادي الصبر يرشدني
إلى طريق رشادي واستقاماتي

أما والقلب المعذب يظل على نبله ، في حاجة إلى أن يث كربتة لصديق

ذي حول ولطافة ، فعائشة تتجه إلى القلب الرؤوف الأكبر الذي لا يقلقه
أنين البرايا :

ولم أزل أشتكي بشي ومظلمتي
لعالم الجهر منسي والخفيات
وقد يحسن أن أدغم في هذا الباب ملاحظة أخرى : هناك نكتة تكاد
تكون الوحيدة في كل كتاباتها ، وقد ظهرت كل الظهور في عصرها
دون تمييز في الموضوعات . فتجدها أمامك في المرض والعافية ، في رثاء
الأحباء وفي آهات الغرام . موضوعها الطب والأطباء .
وقد تشير إلى قلة ثقة الشاعرة بأبناء أبقراط الجهابذة النطس . قالت
تهمكم على طبيب في ثلاثة أبيات مفردة :

يا من أتى للجسم يرى سقمه
ويظن جالينوس بعض عييده
أفنت بالطب الذي تهدي به
أمماً ، وقربت الردى بيعيده
وزعمت أنك أنت قد جددته
ولقد أضعت قديمه بجديده
وهاك ما يعني أن يأس الطبيب في نظرها أمل :
إذا يش الطبيب وكل عني
بقدرته بما أرجو حياني
وهذا استهزاء بالأطباء وتوقع من رمد عينها :
تخالفت الاساة بطول وعد
يعللني ، ويأس فيه حيني

ومن فظ يهددني جهاراً
بمضعه المصوب في اليدين
وقد عفت الأساة وعدت أرجو
طبيب الكون رب المشرقين
وفي وصفها لأقوياء العالم وضعفهم حيال الردى :
يؤوب بالعجز أقواهم إذا ألمَّ
به ألمٌ ، ويبيدي شر حشرات
يلوذ ضعفاً بأذيال الطبيب ، وما
يغني الطبيب لدى فتك المنيات
وكذلك كان لها في الرثاء مجال لإظهار عجز الطب والأطباء فقد جاء
في مرثاة والدها :
رجع الطبيب بيأسه متسربلاً
وأراق جرعته على الحصباء
وفي مرثاة ابنتها :
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفاء
إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه
بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له
عجل ببرئي حيث أنت خبير
وارحم شبابي ، إن والدي غدت
تكلي يشير لها الجوى وتشير

وارأف بعين طيب الكرى
تشكو السهاد وفي الجفون فتور

لما رأت يأس الطبيب وعجزه
قالت ، ودمع المقلتين غزير

اماه قد كلّ الطبيب ، وفاتني
مما أومل في الحياة نصير

لو جاء عراف اليمامة يبتغي
برئي ، لرد الطرف وهو حسير

ومن مثال ذلك في شعرها الغزلي :

سروري باللقا ونعيم قرري
أعاد بعودك الميلاد ثاني

لقد أرغمت كل طيب سوء
أضاع بهزله طول الزمان

وغيره :

لو شخص الداء جالينوس أعجزه
وقال لقمان تكلفني به باطل

كيف الشفاء ومن أهواه فارقني
هيات إن الهوى بحر بلا ساحل

جاء الطبيب يداويني فقلت له

دع عنك طبي ولا تتعب بلا طائل

تعذر الطب والبرء انزوى ونأى

عني ، ولوني من فعل الهوى حائل

ما ينفع الطب والأحشاء في حرق
والجفن من فرط وجدي دمه هاطل
وأحسن دواء ينجح وينشد هو ذا :
أرنا زمان الأنس يا وجه الحبيب
واحذر ، حماك الله ، أن يدري الرقيب
دعني ، لأنني باللقا قلبي يطيب
ودع العلاج وما يقول به الطبيب

عفوكم يا سادتنا الأطباء لئن قال بعض الشعراء إن بعض الأمراض
خير من بعض الأطباء ، فلکم من شاعر قدر أفضالکم على المرضى والأصحاء
على السواء ؟

ولکم من شاعر جعل الطبيب عالماً وحكيماً ورسولاً في آن واحد ،
عندما يدرك كرامة مهنته وكل ما تقتضيه ! وإذا كان الاصطلاح العربي
ماضياً على التوحيد بين الطب والحكمة فينادي الطبيب « حكيماً » ألا ترون
في بيان الشعراء وتوقيع اسجاعهم ما عمل على حفظ تلك العادة التقليدية
ونقلها من جيل إلى جيل ؟

وبعد هذه العوارض فلنلخص :

البيئة المعنوية الصميمة كانت لعائشة في كتبها وأوراقها ، وفي الكتب
التي تقرأ ، وفي الأوراق التي تحبر . ففيها كانت تجد التعزية ومنها المعونة .
وإذا أصابها الرمد شكت بلغة التوقيع !

إذا شكت الوری سقم العيون
فإني أشكي ألم العيون

أبيت كواله أضناه وجد
أنادي من جفوني ! من جفوني !
فلا جفن يطاوعني فأبكي
ولا صبر أزيل به شجوني
وإذا طال رمدها طلبت كتبها وأوراقها كما يطلب الحبيب الغالي :
أمس الكتب من شغفي عليها
وأبلى حسرة من سوء حالي
وأندب مهجتي حباً لأنني
حرمت بدائع السحر الحلال
وليست لتشغف فريدة . بل هي ككل محب تريد عند حبيبها مثل ما
عندها . فتتيل الأوراق والمحابر والأقلام روحاً تحس وتشوق وتبكي :
نعاني أبيض القرطاس لما
جفاني اليوم نور الأسودين
وقد جفت دواتي وهي تبكي
لما قد راعها من طول أني
وأقلامي قد انشقت لأنني
حرمت مساهها بالإصبعين
كذلك كان وسط عائشة من أرواح المؤلفين والشعراء ومن نفثاتهم ،
من أرواحهم كان لها أسرة تناجيها . فتتحدث إليها وتصغي حيناً بعد حين .
وفي تلك « الغربية » التي تأوي إليها أرواح الخواطر كتبت أشعارها
العربية المجموعة في ديوان « حلية الطراز » وديوانها التركي والفارسي
« كشوفة » و« نتائج الأحوال » ورسالة صغيرة اسمها « مرآة التأمل في
الأمور » هذه هي بيتها المعنوية المحبوبة .

حبّنا لاسمها

والإسم .. أليس هو أول علامات الفرد في جماعته ؟

« على أي شيء يحتوي الإسم » ؟ يسأل شكسبير بلسان جوليت ومن منا لم يتساءل عن اهتداء البشر إلى التسمية وعن رائدهم في ذلك ؟ ألا تصغي إلى همس خفي وراء الإسم ، والكنية عند سماعها للمرة الأولى كأن لهما ذاتاً خفية وراء المعنى الظاهر ؟ أو ليس من هذه الروحانية المستترة أستخرج معنى الحساب بالأرقام والحروف ، الذي لا يستهان به في أصوله الفيثاغورية ؟ إلا أن الشاعر العربي القائل « الأذن تعشق قبل العين أحياناً » عبّر عن جانب من حقيقة روحانية عميقة ومضت له في لحظة إلهام وإشراق .

راجع ما شئت من الأسماء التي تعرف أصحابها معرفة شخصية أو معنوية ، ترَ استحالة تبديل اسم بسواه . كأنما تلك اللفظة التي يعرف بها المرء عن طريق الانتحال أو بالمناداة منذ الولادة ، أصبحت جزءاً أساسياً من ذاتيته ، أو صارت على الأقل من أدل الدلائل عليها . وفوق ذلك فإن معنى الإسم الواحد يتغير بإطلاقه على أشخاص مختلفين . هذا شيء يعجز الوصف إلا أننا نشعر به بجلاء ترى الآن شخصية الفرد تتفاعل وشخصية الإسم بامتزاجها بها ؟

إن ما يحدو بي إلى هذا الشرح هو شغف عائشة باسمها ، شغفها بأسمائها

الثلاثة ، فإنني لم أرَ في مطالعاتي كاتباً يشبه عائشة من هذا الوجه ، لا في الشرق ولا في الغرب .

شغفت بكل اسم من أسمائها الثلاثة ورضيت بها جميعاً في بيتها المعنوية فلم تنتحل اسماً جديداً . وأحسن توزيعها إذ خصت شعرها العربي باسم «عائشة» وشعرها التركي والفارسي باسم «عصمت» حتى لتكاد ترى هذه الكلمة في ختام كل قصيدة من قصائدها «كشوفة» وخصت اسم عائلتها بنثرها .

ولماذا هذا الشغف ؟ لكانها متينة الشعور بالصلة بين المسمى واسمه . أو كأنها تذكر قولاً مأثوراً عند بعض المشاركة ، وهو أن الاسم ينزل على صاحبه من السماء ! أو كأنها تطرب له لأنه اسمها ليس غير ، وأنه أول علاماتنا بين الناس ! أو كأنها تشبه بداهة بذلك الفيلسوف الهندي ، يقضي الوقت الطويل مكرراً لنفسه اسمه حتى تنكشف له حجب الغيب فتستيقظ ذاته البصيرة العليمة رائية ما يجري على بعد مسافات ، سامعة ما يقال في البعد السحيق ! جميل معنى «عائشة» وجميل معنى «عصمت» أما «تيمور» - فعلى عهدة من شرح لي وفسر - فلفظة تركية أصلها في اللغة العامية «دمير» . ومعناها الحديد الصلب الذي لم يصقل بعد . ولذلك يخطيء من يطلق هذه اللفظة على تيمورلنك للتصغير أو للاختصار . لأن معنى «تيمورلنك» نصل السيف المصقول .

على أننا قبل الانتباه لمعنى هذا الاسم نتأثر بوقعه المرضي للسمع . وهو يمثل (على ما يلوح لي) مزيجاً من نبرة الأمر العسكري وأبهة وقورة رزينة . تمسها كآبة طفيفة ووداعة .

وبعد ، أيتسع معنى الاسم فتكون كلمة تيمور رمزاً إلى أن الطبيعة النسوية المصرية بدأت تصقل بعائشة ؟

لكنها لم تأخذ الاسم كما هو بل أطلقتته على نفسها بصيغة النسبة . فإذا

بها « التيمورية » وفي هذه الأيام حيث صارت الألقاب والنعوت طوفاناً
يغمر الصالح والطالح على السواء أصبح عدم اللقب لقباً وغدا التجرد من
النعوت نعتاً . فجعل بنا أن نوجز في نعت الشاعرة المصرية وأن نسميها ،
حيناً بعد حين ، بهذا الإسم الآخر الذي أحبته ووضعتة في فم أشخاص
يستشهدون بأقوالها ويضربون بأشعارها الأمثال « التيمورية » .

الفصل الخامس

شاعرة بثلاث لغات

عقريتها اللغوية

قالت التيمورية شعرها بالعربية لغة وطنها المصري . وبالتركية لغة آبائها ، وهي لغة لا يزال التخاطب بها في بعض الأسر ذات الأصل التركي . وقالته بالفارسية التي هي لفظة من أدباء العرب والترك لغة « مدرسية » ، شأنها عندهم شأن اليونانية واللاتينية عند الغربيين . والسبب في ذلك علاقة الفرس بهذين الشعبين الشرقيين من حيث السياسة والتاريخ .

ليس بوسعي درس شعرها غير العربي لجهلي اللغتين اللتين كتب بهما . على أنني أذكر هنا شبه شهادة سمعتها عرضاً من شقيقها أحمد تيمور باشا . وهي قول المغفور له السلطان حسين لسعادته أنه « يفكر فيه كلما رأى ابنته قدريّة تقرأ في ديوان السيدة عائشة » . وهناك شهادة مسجلة في آخر الديوان المذكور « كشوفة » ، وهي رسالة من « إيران دولت عليه سي مصر ، القاهرة قونسولي سعادتلو دوقتور ميرزا محمد مهدي بك أفندي حضرتلي » .

ولكن هل تعني الشهادة والإنكار دوماً كل ما يرصف فيهما ؟ نقرأ أحياناً وصف بعض نتاج الأقلام عندنا فنحسب أننا مقبلون على مثل ما أبرز أوربيدس ودانتي وشكسبير . فنحملق بالعيون والقلوب فإذا بنا نطالع شيئاً حسناً قد يجوز « تشجيع » صاحبه . أو شيئاً غير حسن يتحتم أن يحرم كاتبه من الفاكهة والحلوى طيلة أسبوع على الأقل .

لنكونن إذا من أنصار اللا شهادة ما بقينا في هذه الفوضى الأطنابية .

غير أننا لا يسعنا إلا الإعجاب بقلم يعالج الشعر والآداب في لغات ثلاث .
لا يذهلنا الآن أن يتكلم الشخص الواحد بثلاث لغات أو أربع ، وأن
يتكلم باعة الدكاكين وغللمان البواخر والمقاهي والفنادق بما يربو عليها ،
لعلنا أنهم لا يستعملون إلا الكلمات المألوفة التي تفي بالأغراض السطحية .
لا يذهلنا ذلك لتتابع الاحتكاك والاختلاط بين الأمم . بيد أنه ندر حتى
بين مشاهير الشعوب من الأفذاذ من عرف أكثر من لغتين معرفة عبقرية .



عبقرية اللغات عبقرية مستقلة . هي حلق عميق رشيق ينفذ في أرواح
الشعوب ويأوى إليها ، ثم يتحول اتساعاً وعلواً فيشملمها . كأن الفرد الموهوب
يتقمص في كل شعب يدرس لغته فيتوحد وإياه حياً بحياته ، ناطقاً بلهجته ،
مدركاً منها الخصائص والمستعصيات . ويفسر الروحانيون هذه الموهبة
بما يفسرون به المواهب الأخرى والعبقریات . أعني نظرية الأعمار المتكررة
بالتناسخ والتجسد بين شعوب مختلفة .

وقبل الإلماع إلى الشعر العربي والكلام عن شعر عائشة أعلم أن قولي
لن يرضي أنصار القديم ولا أنصار الجديد . ولما كنت من ألبن الطبائع عريكة
كنت مستعدة لتغيير فكري بشرط أن يقنعني السادة المثقفون . وبعد فلنبداً
متوكلين على الله .

ليس أعسر من تعريف الملكة الشعرية وتحديد الشاعر . أصحيح أن
الشعر كله رقة وعدوبة وإحساس وموسيقى دون تفكير ومعرفة وبحث وقوة ؟
أم هو مزيج من كل ما تفنیه الحياة وتولده من المدركات والمحسوسات ،
سبك في قوالب متعددة وفقاً لأنظمة بديهية تملص كالشعر نفسه من حظيرة
الفهم والإدراك ؟

الشعر أحد أساليب التعبير عن خواطر وعواطف وحاجات ما فتئت

الإنسانية تستوحىها وتتفعل بها . قليلة هي تلك المعاني الأساسية . بيد أن شعبها ومناحيها تذهب كل مذهب وتضرب من أعماق البحار إلى أقطاب الأرض ، إلى فسيح السموات ، إلى رحبات الزمن في الأزل منها والسرمد .

ولقد بدأت المهمة الشعرية عند كل قوم بوسيلة من الوسائل . عن طريق العبادة ، أو تعظيم الأبطال ، أو شكوى الآلام وبث الغرام . ويظهر أن الداعي إليها عند العرب هو سير الاطعان في البوادي وانتقال القوافل في وحدة القفار فاهتدوا إلى الحداء مستحثين الإبل في مستعر الرمضاء . فخفت الإبل سيراً وأنتعش منها النشاط ، وارتاح الحادون إلى النشيد يجدون فيه ملهارة عن المشقة وتسلية للتعب والضجر . وتطرقوا بعدئذ إلى تنويع الموضوعات فتغنوا بمزايا المحبوب وشبهوه بما يعجبهم من خصائص الحيوان في الفلوات التي يجتازون . ووصفوا وحشة المضارب المتنقلة والآثار العافية ، ومرارة الوداع والفراق . وعدّدوا مفاخر القبيل والنسب ولذائد العشق والحرب والغزو والتطعين والإخضاع .

وكان من ثروة اللغة في الألفاظ والاستعارات « لكثرة القبائل المتكلمة العربية » مساعد على التزام البحر والقافية في تنظيم الحداء . فأوجد هذا في الشعر العربي طلاوة وغنى في الوتيرة الواحدة . وجزالة ونكهة بدوية ودقة لفظية تغرد بها دون غيره . ومنه كذلك جميع العيوب التي يسبح فيها شعرنا إلا القليل كما في بحر طام .

يصمم أكثر شعراء العرب على تقليد هذا الشاعر أو ذاك من القدماء بدلاً من أن يجروا وراء سليقتهم الفردية ، فينجم لنا « طبعات » جديدة مشوهة من الشاعر المقلد . ويخاطبوننا بلغة عصور خلت ونحن اليوم في عصر الحيرة والتردد والثورة الكبرى . فن الإعجاب بالجزالة البدوية جاء حب النسخ والتقليد ، وعنه نجم الفقر في الخيال العربي ، والتقيد باللفظ دون المعنى ، وجمع الفكرة في كل بيت بمفرده ، والخلل في اتساق الخواطر ، والقصور

في تنظيم أجزاء الخطاب . حتى أنك كثيراً ما ترى وجوب جعل آخر القصيدة أولها ومتصفها آخرها .

وعن التقليد نتج حصر الشعر في أبواب المدح والهجو والرثاء والحماسة والفخر والنسيب ، والحكمة أحياناً . وعند ترتيب الدواوين على الحروف الأبجدية لأن التواني وشيوع الموضوع يفقدان كل قصيدة عنوانها كما يفقدان كل ديوان فهرسه . وعنه خصوصاً نجم إهمال التاريخ في قصائد الشاعر ومؤلفات الكاتب . كأن نمو الفكر ومماشة التطور دوراً بعد دور شيء لا يلتفت إليه . مع أن معرفة التاريخ ليست دون معرفة الحوادث والمؤثرات وألسن البيئة أهمية في تفهم فصل أو كتاب .



جميع هذه العيوب في ديوان التيمورية حيث لا تنظيم ولا تنسيق ، حتى ولا تبويب على الأبجدية ، ولا أثر للتاريخ في القصائد - إلا القصائد التاريخية في السطر الأخير منها ! ولئن جرت على عادة العرب في التعبير ، أي الإفصاح عن عواطفها غالباً باستعارات من سبقها ، فالأمر الذي يسببني في شعرها أن شخصيتها تبدو من خلال المحفوظات كما يبدو الجسد في لوحة تصويرية من خلال الأنسجة الشفافة وقد تفلتت من عيب « المفاخرة » بذويها وأهلها . ولا هي تبدأ بالتغزل لتنتهي بالاطناب . وليس للاطلاع والمضارب ذكر في قصائدها . وأما من حيث الصدق فأظنها في مقدمة الصادقين من شعرائنا . ومعظم استسلامها للغلو في جزء خارج عنها وهو شعر المجاملة بينا هي في شعرها الذي يرسم نفسها ساذجة مخلصمة عذبة تروي حديثها بأسلوب ليس هو بالهندسي الذي لا يقدر أنصار القديم سواه . إنما هو كما يقول الفرنجة روائي (romantique) يجري عليه بعض شعراء العصر .

وهذا الشعر الوجداني بطبيعته ، الغنائي بلهجته ، ينقسم إلى خمسة أقسام كبرى . وهي :

١ - شعر المجاملة .

٢ - الشعر العائلي .

٣ - الشعر الغزلي .

٤ - الشعر الأخلاقي .

٥ - الشعر الديني أو الابتهالي .

ففي الأقسام الثلاثة الأولى تلقت التأثر من الناس فأعادته إليهم نشيداً .
وفي القسمين الأخيرين تلقت التأثر من مختلف الجهات فخطبت نفسها
وناجت نبيها الكريم مبتهلة إلى العزة الإلهية .

شعر المجاملة

لقد حلت المجاملة عندنا مكان الصدق في أمور جمة لخلو محافظهم الاجتماعية من النقد المنصف الحصيف . فإن نحن استنكفنا هذا التطفل من المجاملة ، وتأففنا لإدمان معالجيها والراضين بها ، فهذا لا يحول دون التقرير بأنها في حالتها المعتدلة علامة للثقافة النفسية . المرء يعيش في بيئته فعليه أن يقلع عما يزعج بني جلدته لغير ما سبب . لذلك هو يضبط خوالج نفسه ، ويحاول الشعور معهم والتلطف اليهم لا خبثاً ولا كذباً بل تمرناً على الغيرية بتهذيب ذاته في فن الإرضاء « والدوزنة » ، واقتبال التصحية الصغيرة التي تسهل بالمران وتتحول شيئاً فشيئاً إلى سرور وقي مأنوس استبدل كلمة « نرجو تشريفكم » في دعوة بكلمة « احضر عندنا يوم كذا ساعة كذا » تعلم أن الصراحة ليست هي الخشونة ، وتقدر المجاملة المعتدلة وآداب اللياقة . وتعلم لماذا هذه الملح في حالة الدقة والإحكام تلقى في اجتماعات الأُنس رونقاً سطحياً مستحسنًا .

أما عائشة فلديها الوقت الكافي لتفنن في تنميق الدعوة على هذا النسق :

لقد مَنَّ الإله لنا بسعد	وأشرقَت الليالي بالأُماني
وقام الفوز في الدنيا خطيباً	ودقَ الحظ أوتار المثاني
وأنتم للمنى عين وروح	ومشكاة السرور مع التهاني
لكم صفو المسرة في انتظار	فمِنَّوا بالتعطف والتداني

أجيبوا دعوة الداعي فأنتم فرائد والمجالس كالجمان
وفي الوليمة يقرأ المدعوون هذه المجاملة الأخرى على لوحة كبيرة :
قد مَنْ فضلاً بالصفاء الفتحاح
وضياء توفيق الهنا مصباح
والسعد أقبل والعناية ساعدت
دامت لنا بسرورنا الأفراح
وتطرز اسم رجال الإنشاء :
علام الدر يا غواص غوالي
فبعه بما يسام ولا تبسال
لقد جاد الإله لنا ببحر
يجود بادره قبل السؤال
وتحيي دولتلو حسين باشا « أليس هو السلطان حسين بعدئذ ؟ لقدومه
من السفر فتقول :
لاحت شمس السعد بالأقطار
وجلّت عروس الأوس للابصار
واستبشرت مصر المنى بقدومه
حسن الخلّاق غرة الأنوار
لو للديار فم لقات مرجباً
بشرى بنير عزتي ومـداري
قد أقبلت بالبشر دولتك التي
هي تاج آمالي وعين فخاري
أكثر المجاملة في شعرها لامتداح الخديوين « عشر قصائد تقريباً » .

هاك كلاماً حلواً رناناً في تهته الخديوي بالعودة :
كللت تاج البدر قرباً بالشـرف
مذ حل في مصر ركابك وانعطف
طربت بمقدمك السني بلطفه
مصر السعيدة والسرور بها هتف
وازينت بكر العجور وأصبحت
مجلوة بين الرفاهة والترف
وتجملت مصر بما جاد هنا
ورخيم مطربها على عود عكف
في منتهى اللطف هذان البتان لا سيما الثاني . وفي الشطر الأخير نفحة
شعرية منعشة . وهذا مثله :

وتراقصت مهج النفوس لبشرها
كبلابل غردن في روض أنف
أضحى يقول بسعد بابك نيلها
أقبل على بحر الوفاء ولا تخف

أكل هذا محض رغبة في المجاملة والإرضاء؟ بل فيه بعض الصدق
إن للأعياد العمومية والاحتفالات بهجة و«جوا» ينفث في الجماهير فكرة
ويبث فيهم توقعاً . ويخلق في ذوي الشعور المتيقظ مختلف العواطف . فكيف
لا تتأثر المرأة المحجوبة إذ تمر في مركبتها المسدولة الأستار بين معالم الزينة
والألوية والأنوار وصفوف الجنود وقرع الطبول؟ كيف لا تهتم بالذات
العلية التي تهتز البلاد لحركاتها وهي القرية اليها بمنصب أبيها ، المدينة لها
بعض الشيء بمرتبة أسرتها ، الملمة ببعض أحوالها بالاختلاط بنسائها؟

فكما تهنىء خديوياً بالعودة تهنىء الخديوي التالي توفيق باشا بالتولية :

تيجان يمن الصفاء أضحت تكللها

يد السرور بفوز دائم بهج

والسعد أشرق نوراً والسما غنيت

عن نور أقمارها والأرض عن سرج

تقلد النير الدري تولية

ضياؤها لسوى الإصلاح لم بهج

هذا الخديوي الذي قرت بموكبه

عين الزمان وقالت للهدى أتهج

يسوس بالعدل والإنصاف أمته

ويبذل الفضل والجدوى لكل رج

والدهر رنم بالبشرى يؤرخه

يا مصر قد زانك التوفيق بالبلج

(سنة ١٢٩٦ ٣٤١ ١٠٤ ٧٨ ٦٢٧ ١٤٦)

واذ يمر الخديوي بينها العسل تنظم هذه الأبيات لتكتب على لوحات

الزينة :

البشر أجرى بينها أنهر العسل

والنصر أضحي بتوفيق السعود جلى

وافى « الخديوي » فأضحى نور بهجتها

كالبدر في التسم أو كالشمس في الحمل

ما ثم أرض سقاها غيث مقدمه

إلا وفازت بزاهي الأنس والجندل

تهلل القطر بشراً من زيارته
وأيقن القوم حسن الفوز بالأمل
وحين مولد ولي عهده :

قرت عيون للسعادة بالصفاء
مذ بشرت بسمي عم المصطفى
عباس أشرق بالمعالي نجمه
من نيرالتوفيق سعداً أشرفا
رقصت بمنبتها الغصون بشارة
بقدوم من بوجوده دهري صفاء
قالت ميامن بشره تهن الورى
فالأمن والتوفيق فوزاً أخلفا

إلا أن هذه اللهجة تصطبغ بالجد في قصيدة الترحيب بالخدوي بعد
الثورة العراقية :

الله أكبر يوم آب عزيزنا
عيد كبير زانسه التشريق
وافى الخديوي الفخيم المرتضى
رب الفخار عزيزنا توفيق
رفعت له الأعلام يوم قدومه
وبدا لها في الخافقين خفوق
وسرت بأرجاء البلاد مسرة
من عطرها روح النسيم عبيق

عزفت له الأفراح ألحان الهنا
وبدا يشير لحسنها التصفيق
ومن ثم تمضي في انكار تلك الثورة التي لم يرض عنها الخديوي :
ولك السيادة ليس ينكر أمرها
إلا عديم العقل أو زنديق
قدحت بأكباد العدا نار الغضا
واشتد ما بين الضلوع حريق
كفروا بأنعم فيض جدواك التي
تربو على قطر الندى وتفوق
ظلموا نفوسهم بخدعة مكرهم
والمكر بصبي أهله ويحيق
فرقت شمل جموعهم فمكانهم
في الابتعاد وفي الوبال سحيق

هذه مصارحة خطيرة وهي الغمزة السياسية الوحيدة في كتابات التيمورية
إذا استثنينا مشايعتها للعرش في قصائد الثناء . مشايعة فيها تلخص عاطفتها
« الوطنية » وبها تعجب جو « مصر السعيدة » ونيلها الفياض ، وألحان أفراحها .
تريد لمصر الخير والصلاح والهناء بواسطة الخديوي الذي ترى فيه أقدر
عامل على ذلك ، ليس لأنه مصلح أو خير بطبيعته ، بل لأنه صاحب الأريكة .
فكما أنه فوق رعاياه في المكانة فهو كذلك لهم في الصلاح والعدل المثل الأعلى .
والتيمورية في هذه « المحافظة » السياسية متفقة وطبيعتها . لأننا رأينا
في ما مضى وسنرى في الباقي من آثارها أنها غير نائرة .

شعرها العائلي

أليست المجاملة وخب التساهل لتيسر العلاقات بين أعضاء البيت الواحد ،
وتحل من المشاكل ما قد لا يفلح في حله الصراحة والعناد ؟
تكاد تتوحد العاطفة والمجاملة في بعض شعر عائشة العائلي . لأن الملاينة
تتخذ لهجة أقرب إلى النفس في مثل ترحيبها هذا بولادة شقيقتها :

غنى فؤاد الأم أهلاً بالذي
مذ جاء أشرقست المنازل بالهناء
وفي قولها يوم بدأ يقرأ ، كأنما هي رأت في المستقبل المرتبة العلمية
التي هو بالغها :

لاح السعود وأسفر التوفيق
وتلا لنا سور العلا توفيق^(١)

رقم الفقيه له على لوح الهدى
أقبل ، فإنك للنجاح رفيق
وفي وصف هدية بعث بها خطيب شقيقتها إلى عروسه :

تهاديننا الزهور فعطرتنا وللنسمات تعطير مضاعف

(١) اسم شقيقتها تيمور باشا هو أحمد توفيق تيمور ، ثم تغلب اسم أحمد ، وبه عرف .

سألنا ما الذي أذكى شذاها
فقليل لأنها نفحات « آصف »^(١)

وفي قولها في ختان ولدها :

دقت له العلياء دف ———— سروره
لما زها عن ثغره البسام
وغدت تعوذ نجمه لما بدا
ودعته في أفق المسرة سامي

رمقته أحداق الورى من بشرها
وصفت له الأرواح في الأجسام

هذا شعور الأم . ولأنها ترمق ولدها بالبشر ، وتصفو له روحها ،
فهي لا تقبل في الثناء عليه بعدئذ معارضة ولا إنكار : فتكتب إليه مرة
تطلب كتاب « درة المختار » :

طروس حررت فوراً	فحاكت نسمة الأسحار
سأودعها تحييات	بها عرف الصبا قد سار
إلى عالي المكانة من	سما في المجد والمقدار
له همم إذا ظهرت	توارت دونها الأقمـار
وأرجو من معاليكم سريعاً	درة « المختار »

وتكتب إليه مرة أخرى مشتاقة صادقة ، وفي الشطر الأخير مثال من
ذكرها لإسمها أما السطر الأول فن ألد أحاديث الأمومة :

قلي لبعـدك لم يـحمد مجاورتي
وفر نحو حبيب في حشاه ربي

(١) هو آصف باشا .

فقل بطلعتك الغرا وعزتها
واحكم بما ترتضي تمت بالأدب
من غير قلب أتبقى روح عائشة
لا والذي زان هذا المجد بالأدب

وأصدق صورة من شعرها العائلي في المراثي ، ولا سيما مرثاة ابنتها
المحوبة توحيدة وهي القصيدة الوحيدة تقريباً التي يذكرها الناس من شعرها
زاعمين أنها خير ما نظمت التيمورية ، وحكمهم في هذا حكمهم في كثير
من الشؤون : يقرون رأياً ما ، ويعززون ، ويتعصبون له قبل الاطلاع
على سواه ، بروح التساهل ، وقبل أن يصرفوا ولو دقائق في البحث والمقارنة .
وأضيف إلى هذه المرثاة مرثاتها للشيخ إبراهيم السقا الذي يلوح كأنه
عضو من عائلتها المعنية . فتتوجع لفقده :

الدهر أبدل راحتي بعناء
واعتاض صفو تنعمي بشقاء
شجن عرى الإسلام بالظماً الذي
حل العرى بضمائر العلماء
أضحت حصيداً أرض أزهرنا التي
كانت به كاللدوحسة الخضراء
تشكو الأوام وما بها من مطفىء
مذ غاب سقاء العلى بالماء
قلي عليه غدا كجمرات الغضا
والوعتي من حره وشقائي
فلأذرفن أسى عليه مدامعي
ما دمت عائشة بخدر فنائي

اسمها من جديد ، يصحبه وصف كارب من التحجب إذ تدعو خدرها
« خدر فنائها » .

أما في مراثاة والدتها فتطلب للراحلة الرحمة ، وتهنئ القبر بتزيلته
المخدرة التي لم تسفر لغريب :

يا قبر ، فاهناً بالتي أحرزتها —
هي درة بالدرج لاحت تسطع
يا رب ، فاجعل جنة المأوى لها
داراً بطيب نعيمها تتمتع
واسكب على حصباؤها سحب الرضى
فضلاً ، وإن تك قد سقتها الأدمع
يهناً لأرباب النعيم نعيمهم —
طوبى لمن من نهرهم يتضلع

وبعد هذا الامثال تنتفض صائحة بالموت الذي فطر حشاشتها . إلا أن
صيححتها تظل استرحاماً . وما أبلغ وصفها الردى « بمنهل التشتيت » على قياس
النظرة الدنيوية التي تختبر به الفراق المر ، دون الأمل الروحي الذي يرى
فيه وسيلة الاجتماع والاتحاد .

يا منهل التشتيت ، حسبك ما جرى
فعيوننا قد أقسمت لا تهجع
ذهب الأحبة واستقر ركا بهم
يا ليت روحي ودعت إذ ودعوا
يا ليتهم طلبوا الفناء فهذه
روحي ولكن « ليت » ليست تنفع

وفي رثاء شقيقتها :

أحبيتي ، كيف الرضا بتشتت
قد ضر بالإخوان والأولاد

وفي هذه المراثاة ترتفع التيمورية لحظة إلى ما فوق الندب والرثاء :

يا من أتى للقبر يقرأ طرسه
مهلاً ، فليس كتابه بمداد

وأعد له نظراً فإن حروفه
كتبت بذوب العين والأكبـاد

وفيهـا هذا البيت الذي يسجل بداهة وجوب انحلال الصور الكونية
ليتسنى لها أن تتألف وتتشكل مرة أخرى . فيتم بذلك ناموس من أكبر
النواميس في الوجود :

وجدت ، وأعدمها الزمان حياتها
ما أقرب الإعدام للإيجاد !



تولد المرأة أحياناً صنوف التوليد المحسوس . فأحوال حياتها جميعاً
تتهياً لهذه الوظيفة وتتجه نحوها إنجاه الأنهار إلى البحر . ولقد شبهت الأم
دواماً بالطبيعة ، تلك الأم العظمى . وكان ما يرمز إلى أمومة الطبيعة ووظيفة
التوليد الرائع فيها ، أنثى في جميع أديان الأقدمين . فأيزيس المصريين
« تلك الآلهة التي بدأت التوليد الإلهي ، الأم الإلهية التي ولدت جميع الأشياء »
واللواتي قمن مقامها في الميثولوجيات الأخرى ، يرمزن إلى المرأة القادرة
بأمومتها ، الممثلة الطبيعية بوظيفتها ، القائمة حلقة مغناطيسية بين الحياة
والحياة .

فما هو شعورها يوم ترى مخلوقها جامداً في حضنها هامداً ؟

لا عجب أن يبدو الكون عندئذ متهدماً في نظر الثكلي وأن ينقلب الروض
قفرًا ، وأن يغشى النور ظلام .

ولا عجب أن يكون غمها الأكبر الذي لا يحتمل أن يظل هذا الكون
المتهدم لها عامراً لسواها ، ويظل هذا النور منتشرًا ينير الناس ويفرحهم في
حين يلهم الجو حولها .

أي مأساة هذه التي تتصدع من جرائها الخليقة ؟
أغمضت توحيدة عينها ، فكل الحياة عند عائشة سواد وتهدم وتفجع
وتناقض أليم .

ستر السنا ، وتحجبت شمس الضحى
وتغيبت بعد الشروق بـ

ومضى الذي أهوى وجرعني الأسى
وغدت بقلبي جـ

طاقت بشهر الصوم أكواب الردى
سحراً وأكواب الدموع تدور

فتناولت منها ابنتي فتغيرت
وجنات خـد شأنها التغير

فذوت أزاهير الحياة بروضها
وانقـد منها مائس وتضير

يا روع روحي ، حلها نزع الضنا
عما قليل ورقها ستطير



من أرق قصائد تنسن الإنجليزي وأدناها على شاعريته الحنون قصيدة

« ملكة مايو » وهي عادة جرى عليها الإنجليز في بعض المقاطعات أن يختاروا كل عام من بناتهم ملكة للربيع .

فإذا شئت أن تقف على مثال من توارد الخواطر فاقرأ قصيدة تنسن المذكورة (The May Queen) وقابل بينها وبين مرثاة التيمورية لابنتها ضارباً صفحاً على الانساق التام في قصيدة الشاعر الإنجليزي ، وعن نقيض ذلك في قصيدة الشاعرة المصرية . تجد العاطفتين تتلامسان في غير موضع . وأذكر أن عائشة كانت تجهل الإنجليزية ، وإن هذه القصيدة لم تنقل في عصرها إلى العربية . واظنها لم تنقل بعدئذ وقد أكون مخطئة .

فتاة تنسن تقول مودعة والدتها ساعة الموت (١) :

You'll bury me, my Mother, just beneath the hawthorn shade, And
you'll come sometimes and see me where I am lowly laid, I shall not forget you,
Mother, I shall hear you when you pass, With your feet above my head in
the young and pleasant grass. I have been wild and wayward, but you'll
forgive me now; You'll kiss me, my own Mother, and forgive me ere I go;
Nay, nay, you must not weep.

و« توحيدة » تقول :

والقبر صار لغصن قدي روضة

ريحانها عند المزار زهور

(١) ادفنوني يد أماء ، في ظل أشجار الزعرور .

وزوريني أحياناً حيث أنا متوارية .

لن أنساك يا أماء ، وعندما تمرين

سأسمع وقع خطاك على الحشيش الغض اللطيف

كنت شرسة عنيدة إلا أنك الآن تسامحيني

قُبَليني يا أماء : وسامحيني قبل أن أمضي

لا ، لا . لا ينبغي أن تبكي .

وتقول :

أُمَاه ، قد عز اللقاء وفي غـد
سترين نعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي
هو منزلي ، وله الجموع تصير
قولي لرب اللحد ، رفقاً بابنتي
جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلدي بإزاء لحدي برهة
فتراك روح راعها المقدور
أُمَاه ، لا تنسي بحق بنوني
قبري لئلا يحزن المقبور
فتاة تنسى تذكر حبيبها فتقول :

And Say to Robin a kind word, and tell him not to fret: There's many
worthier than I would make him happy yet. If I had lived - I cannot tell -
I might have been his wife: But all things have ceased to be; with my desire
of life.

وتوحيدة لا تذكر اسماً ، إنما تشير إلى الزواج الذي كان قريباً لولا
الموت :

أُمَاه ، قد سلفت لنا أمنيّة
يا حسنها لو ساقها التيسير

(١) قولي لروبن كلمة مواساة وقولي له أن لا يحزن
كثيرات غيري خير مني قد يجعله سعيداً
لوعشت لربما كنت أصير له زوجة
إلا أن جميع هذه الأشياء تلاشت مع رغبتني في الحياة .

كانت كأحلام مضت ، وتخلفت
مذ بان يوم البين وهو عسير
عودي إلى ربيع خلا ومآثر
قد خلفت عني لها تأثير
صوفي جهاز العرس تذكاراً ، فلي
قد كان منه إلى الزفاف سرور

وكما تطلب فتاة تنسن الصلاة ، وتبارك الكاهن الذي أسر إليها بكلمات
الرحمة والسلام فأفهمها عذوبة الغفران ، وحجب إليها الموت بعد أن كان
مخيفاً ، وأكد لها أن المسيح الذي « مات لأجلها سيبلغها السماء » كذلك
تطلب توحيداً أن يزار قبرها وأن تتلى الصلوات على روحها لتحظى برحمة
الرب الغفور :

أماه ، لا تنسي بحق بنوتي
قبري لئلا يحزن المقبور
ورجاء عفو ، أو تلاوة منزل
فسواك من لي بالحنين يسرور
فلعلما أحظى برحمة خالقي
هو راحم ، بر بنينا ، وغفور
الأم عند تنسن لا تسمعنا صوتها . أما عائشة فتنتحب وتعود فتبكيها :
بتناه ، يا كبدي ولوعة مهجتي
قد زال صفو شأنه التكدير
لا توصو ثكلى قد أذاب وتينها
حزن عليك وحسرة وزفير

قسماً بغض نواظر وتلهفني
مذ غاب إنسان وفارق نــــــــــــــــور
وبقبلتي ثغراً تقضي نجبـــــــــه
فحرمت طيب شذاه وهو عطير
والله لا أسلو التلاوة والدعـــــــــا
ما غردت فوق الغصون طيور
كلا ، ولا أنسى زفير توجعـــــــــي
والقد منك لدى الثرى مدثــــــــور
أبكيك حتى نلتقي في جنــــــــة
برياض خلد زينتها الحــــــــور
أنها تؤمن بالخلود ، لذلك يعقب تفجعها الخضوع ، وبينما هي تقول
بلسان الجسد :

قد كنت لا أرضى التباعد ساعة
كيف التصبر والبعاد دهــــــــور؟
ولهي على « توحيدة » الحسن التي
قد غاب بدر جمالها المستــــــــور
إذ بها يتجه انتباهها إلى ما وراء الموت فتذكر أن الفراق الطويل والانفصال
المحسوس لا يجردانها من فخر الأمومة واغتهاطها . فتقول بامثال حزين وقد
نما أملها بالاجتماع المنتظر :

هذا النعيم به الأحبة تلتقــــــــــــــــي
لا عيش إلا عيشه المبــــــــــــــــرور

وتشكر الله على كل حال :

قلبي وجفني واللسان وخالقي

راض وباك شاكر وغفور

ابنتها ان فقدت بها « كبدها ولوعة مهجتها » فانها رغم ذلك ، الفتاة الصغيرة التي لا تستطيع أن تكون لوالدتها الحصن الحسي والمساعد الذي يخفف الأثقال ويروج الأعمال . صدر والدها هو لها ذلك الملجأ في الحزن واليأس ، ومن قلبه التعزية ومن مقدرته المعونة فيوم تفقده تفقد الشاعرة هذه الشفقة التي تلذ لها من أبيها ، وتذ لها من الناس ولهذا تقول في رثائها له :

يا حسرة ابنته إذا نظـرت لها

بمـاتـه عين من البأساء

يا كثر آمالي وذخر مطالبي

وسعود إقبالي وعين شفائي

يا طب الأمي ومرهم فرحتي

وغذاء روحي ، بل ونهر غنائي

أبتاه ، قد جرعتني كأس النوى

يا حر جرعتني على أحشائي

وهذا الأنين يستحضر للذاكرتي أنين ابن أخيها المرحوم محمد تيمور

فيما بعد ، عند ضريح والدته في ساعة غم متفجع قانط :

أماه ، قومي واسمعي

أرأيت دمع محاجري

هل راع قلبك ما لقيت

إن الوجود صحيفـة

خلفتني للهم فيه

أماه ، مالك لا تجيبي ؟

وسمعت يا أمي نحبي ؟

من النوائب والكروب ؟

ملأى بأسرار القلوب

وللشدائد والخطوب

أماه ، اني قد طرقتُ — ت حماك في اليوم العصيب
أبكي على سعدي كما يبكي الغريب على الغريب
أفنى الغرام تجلدي وفقدت في أهلي طيبي
هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على حبيب

والفرق بين التيمورية وابن أخيها في هذا الانتحاب أن الشاعر الفتى
همه الشكوى وطلب الشفقة إذ ليس من يسمع له ويواسيه غير الأم في قبرها .
أما عائشة فتعود إلى انتباه لطيف في حسرتها ، وهو دليل رقة نسائية
حلوة ، تعنى برضى والدها ميتاً وحيّاً . وفيه كذلك دليل على الأثر الذي
تركه الوالد الصالح الحكيم في حياتها :

يا ليت شعري ، حين ما حل القضا
هل كنت عني راضياً أم نائي ؟



أسمعت القصب يشدو ؟

ذلك القصب الشرقي الساذج الذي سبق شدوه جبروت الفراعنة وجلال
الأهرام وكتمان الهياكل - أسمعته يشدو تحت النخيل على ضفاف النيل
عند حلول الشفق ؟

لكأن شدو عائشة شدوه :

إنها تجرب مزارها في المجاملة ، وتنتحب فيه بالرثاء ، لتبلغ منه أشجى
قرار وأحر زفير في شكايات الغرام . وتسمو به بعدئذ مرفرفة كالألحان
المجنحة ، في الابتهاال إلى المهيمن على دوران الأكوان وحظوظ بني الإنسان .

الفصل السادس

أشعارها

في الغزل. والأخلاق. والدين

شعرها الغزلي

« الحب عارض في حياة الرجل ، ولكنه حكاية حياة المرأة » .

كلمة شهيرة قالتها امرأة من أنبغ نساء العالم في فيض عاطفتها واتساع تفكيرها وفي مقدرتها الأدبية ، هي مدام « دي ستيل » الفرنسية التي نالت شهرة غير مختلصة ، ومجداً مستحقاً ، وإعجاباً توافق وعبقريتها النادرة . وقد عاشت تلك المرأة الممتازة ، عمرها وعواطفها تذوب جوعاً ، والظماً إلى الحب الهانيء يبرح بها ، ولم تفهم معنى السعادة ، على قولها ، إلا في الحب المتبادل الذي تم لها في الأعوام الأخيرة من حياتها .

المفروض أن تسير عاطفة الحب عند المرأة سيرها الطبيعي ابتداء بحب الوالدين ، إلى حب الأخوة والأخوات ، إلى حب الأقارب والأصدقاء ، ثم يتجه الحب في حينه إلى الخطيب الذي تطلب فيه المرأة طبعاً الحبيب ، ثم حب الزوج والولد والعائلة الجديدة بشتى فروعها .

وبرغم أن هذا الحب نسيج حياة المرأة ، فإن الرجل الذي اعتاد اذلالها باسم القوة والحصانة ، سد في وجهها منفذ الانتباه لعواطفها المشروعة ، وأنكر عليها الإفصاح عما ينشئ بأنها ذات بقطة مستقلة . وكل ما اقتحمته في عالم التعبير خلال العصور المظلمة يكاد يتلخص في وصف النبات والحيوان في حكايات قصيرة ، ولم تنظم إلا الأناشيد الدينية والصلوات الروحانية ، فإذا خرجت من ذلك فلتصوير حياة الرعاة وعاداتهم ومرحهم في عيشة

الخلاء ، أما النساء العربيات في الجاهلية وفي صدر الإسلام فلم ينظمن - على ما أعلم - إلا في المدح وفي الرثاء وما اليهما . وقليل ما ينسبونه من شعر الغزل والنسيب إلى بعض الشاعرات .

ولو اننا رجعنا إلى أوائل القرن الماضي وهو عهد مدام دي ستيل نفسها - يوم أنشأت المرأة في الغرب تنزع إلى تحرير فكرها وإطلاق براعتها ، وقابلناه بعهد عائشة والمرأة حبيسة خدرها وراء الحجاب ، لوجدنا شاعرتنا في طليعة نساء العهد الجديد المتعرفات حقهن في حرية العواطف ومشروعاتهن ضمن حدودها الطبيعية ، هي في طليعتهن ، ليس في الشرق فقط ، بل في العالم المتمدن كله .



لقد قالت الكثير من شعرها الغزلي محاكاة وتقليداً ، كما اعترفت بذلك في تصدير بعض أبياتها حيث تجد : « وقالت متغزلة في غير إنسان والقصد تمرين اللسان » . ولكن ، أتكون الأبيات التالية في بساطتها « لتمرين اللسان » كذلك ؟

أشكو الفرام ، ويشتكى	جفن تعذب بالسهر
يا قلب ، حسبك ما جرى	أحرق جسمي بالشر
رام الحبيب لك الفنى	لم ذا وأنت له مقرر؟
لكن تعذيب الهوى	ما للشجي منه مفر

ويبدو شعرها في أصدق لهجاته عندما تذكر هذا السعير الذي يضرمه الشوق (وكثيراً ما يذكره الصد في بعض الأمزجة إلى حين) وهي تستوحيه في أكثر غزلها :

حر التهابي ووجدي واحترق دمي
بفيح وادي الغضا عمن سواك خفى

هاكه في هذا الخمس الذي سمعهم ينشدونه في سورية :
يا ظبي ، في قلبي عليك حرارة
تطفي لظاها - إن سمحت - زياره
حلو الرضاب ، أفي الوصال مرارة ،
أم في التفاتك للشجبي خساره
وجميع ربحي في الهوى أنفقته
ومن مربعاتها :

لما نأى عني وبان صددوده
والقلب أصبح لا يفيق عيوده
ملك الهوى رقي وحق وعيوده
والحب خط بالجباه قديم

بهذا الشطر الأخير هي تردد الفكرة الشائعة في الشعر العربي ، وهذه
الفكرة حقيقة محسوسة ، فحواها أن بين جماهير الناس أشخاصاً خلقوا
للحب وكانوا مفضولين عليه أكثر من غيرهم ، وقد قدر على أولئك الأشخاص
أن يعرفوا بعضهم البعض وأن يبحث الواحد منهم عن الآخر ، السعادة
أم للشقاء ؟ سيان ! وإنما للحب وفي سبيل الحب على كل حال . وتمضي
عائشة في إتمام مربعاتها ، وكلها غنائية تجمع بين بساطة اللفظ وسهولة المعنى
وفتنة الغرام الضرورية لتوقيع الإنشاد :

يا ليل ، ها أنا فيك ساه ساهر
ولعزة المحبوب شاك شاكر
يا ليل ، قد أيقنت أنك كافر
إذ لم يكن لي من دجائك رحيم



يا ليل ، إنك في الفعال منافق
هذا تسهده ، وذاك توافق
وإذا لضم ان فيك العاشق
ضاعفت شكواه وأنت بهيم

وهذا الخطاب لليل يذكرني بأبيات لابن أخيها ، المأسوف عليه محمد
تيمور الذي رأى في الليل عكس ما رأت فخاطبه مطمئناً إليه شاكياً غدر
الناس :

أنا ، يا ليل ، أناجي	منك سلطاني الرحيم
أنا في الدنيا وحييد	ولي الناس خصوم
راقهم ، إن جدد أمر	برق غدر لا يبدوم
ورأيت الغدر نارا	ورأوا فيه النعيم
هدموا بنيان ودي	وانمحت منه الرسوم
ومليك الليل بر	هو لي أم رؤوم
وهو لي حل أمين	ولأفكاري نديم
أنا ، يا ليل ، أناجي	منك سلطاني الرحيم

ارتكبت قبل اليوم جريمة الصراحة إذ قلت إن الخيال الشعري عندنا
من الفقر بحيث ترى المعاني نفسها مكررة في كل جيل بنفس الألفاظ
القديمة . وقد بحث السادة الشعراء عن مزيد من القيود فاهتدوا إلى ما يسمونه
« المعارضة » التي تفرض عليهم التزام البحر والقافية كما تعهدوا بالتزام
اللفظ والمعنى مع شيء من التبديل في الوضع ! فهل بعد هذا ، من لوم
على عائشة إذا هي وقفت عند معالم الغزل المألوفة التي قصرت في الكثير من
شعرنا على التشبيب بالعين والحاجب والخال وأخواتها ؟ وشهدت عائشة

جميع الأجيال السالفة تلوم العواذل راجية أن يرد كيد اللاحي إلى نحره .
ففعلت هي فعلتهم جميعاً فلامت العواذل ، راجية أن يرد كيد اللاحي إلى
نحره . وتغزل الشعراء بالخمرة ، وزعم المتصوفة منهم أنهم يرمزون بها
إلى الحب ، وأحياناً إلى الحب الإلهي ، فعلام لا تتحداهم عائشة ؟

جهل العواذل ما تريد بشربها نفسي وما تلقى من السكرات
وسلوها عن جفوة أم صبوة لفؤادي المضي من الحسرات
شتان بين ظنونهم وسرائري الله يعلم منتهى غاياتي

كذلك تحدث الأندلسيون في شعورهم واصطناعهم تفهم أسرار الطبيعة
وتأويل معانيها ، فوصفت حركات حدثت للزهر وللماء لأن المحبوب ،
الذي تسميه التيمورية بالإسم الطامي في الشعر العربي ، أي الغصن ، بدا
في الروض . فاهتز لظهوره كل ما استطاعت ألفاظ الشاعرة أن تهزه من
الموجودات . فإذا بها تتساءل :

إن كان ذلك حال الزهر من عجب

فكيف حال أخي وجد وأشــواقـي ؟

كل هذا العمل عندها وعند من قلدتهم ، بل عند الكثيرين من كتاب
الغرب ، كان مقدمة طويلة لعهد « الرومنترم » ، أي عهد دخول الشعراء
والأدباء إلى نفوسهم يلمسون جراحهم بأيديهم ويستوحونها ، ويتعرفون
حالاتهم النفسية فيتمكنون من النظر إلى الطبيعة تلك النظرة النافذة الرائعة
فيكتنون فيها مغزى المعاني ويرون فيها فائن الصور والألوان في الحزن وفي
الابتهاج جميعاً . وما ذكر الإحساس بالطبيعة ونزعة الرومنترم ، أي النزعة
الوجدانية الصميمة في الأدب ، إلا ذكر جان جاك روسو موجد تلك النزعة
في آداب الغربية . فسرت من بعد إلينا ، وتعلم الجيل الجديد من شعرائنا
تعرف ما في نفوسهم وما في الطبيعة من تغير وتنوع في الظواهر وفي الخوافي .
بيد أن الرومنترم ، ككل شيء آخر في هذا الكون ، أفسح المجال للمذاهب

أدبية أخرى تطورت منه ومن فروعها فأصبح اليوم في حكم « القديم »
في أوروبا ، بينا هو وغيره من شتى المذاهب الأدبية ما زال شائعاً عند الجيل
الحاضر من شعرائنا وأدبائنا .



ولكن عودة إلى التيمورية ! إننا رأيناها متكلمة بلهجة الرجل ، وذلك
راجع طبعاً إلى أمرين اثنين ذكرتهما قبلاً ، وهما .

أولاً - عادة الضغط على عواطف المرأة وإخراص صوتها . فكان أيسر
لها أن تتخذ لهجة الرجل المصرح له بما حظر عليها .

ثانياً - لأنها كانت مقلدة . فقد قلدت الرجل في معانيه كما قلده
بداهة في لهجته . الرجال أساتذتنا ومهذبونا ومكيفونا ، عليهم تتلقى دروسنا ،
وعن كتبهم وكتاباتهم نقتبس المعرفة ، وبذكائهم نستعين لصقل ذكائنا
وإنمائته ، ومنهم نستلهم كل فكر عظيم وكل عاطفة جلييلة . لقد احتكر
الرجال جميع أنواع القدرة والإبداع والتفوق ، فما نكاد نفتح عيوننا
وأذهاننا حتى نرى جميع مناحي السلطان والسيطرة والنفوذ ممثلة فيهم . بيد
أن الطبيعة النسائية تظهر عند عائشة بعض الظهور في الخجل الذي يشعر المرأة
أحياناً بأنها صغيرة ضئيلة أمام من تحب ، كما يشعرها بأن هذا الرجل الذي
اختارته هو الذي يملأ الدنيا حياة ويفيض عليها الرونق والنور :

أنا المسربل بالأعذار من كلفسي

إذا التقينا ، وأنت الرائق الوسم

وتظهر طبيعة المرأة ظهوراً أتم في هذا الخجل الصريح :

وهذه كلمات قادهـا شغف

إليك ، لولاه لم تبرز من القلم

جاءت ، ومن خجل تمشي على مهل
تخاف عند لقاءها زلّة القدم
وقد يكون خير شعرها الغزلي وأصدقه في القصائد التي قيلت خلال رمد
عينها وبعد الشفاء منه ، يوم عادت إلى مشهد النور ورؤية وجوه الأحياء .
ومنها :

بكعبة الحسن إنساناً أرى فسلبوا
عيني التي طالما ضلّت من الغسق
وخبروني ، أنساني صفاء ودنا
لمستهم رماء الين بالأرق ؟
وما لبث أن عاودها الرمد فانقلبت تشكو الظلام الذي هي فيه والألم
والحرمان جميعاً :

فوا أسفَى على إنسان عيني غدا في سجن سقم واعتقال
حجبت بسجنه عن كل خل وصرت مخاطباً صور الخيال
ثم ترسل الأمانة الواحدة المتضمنة أمانى أخرى :

فيا إنسان عين غاب عنها وبدلني به طُـول اللال
عسى ألقاك مبتهجاً ، معافى ، وأصبح منشداً « أُملي صفائي »
لتهنأ مقلتي بسنى حبيب بديع الحسن ، محمود الوصال
وأنظم أحر في كالدرد عقداً به جيد الصحائف كان حالي

ثم تصف ما تقاسي من العذاب في الظلام والأرق :

فكم أمسي بما ألقى حزيناً وبين النوم معترك وبيتي
أبيت ومؤنسي الخفاش ليلاً وحالي معه شر الحاليتين
فذاك بنور عينيه مهنى ولي أسف بحجب المقلتين
وأبسط للظلام أكف بشي وأشقى لوعة بالظلمتين

تراني معرضاً عن كل ضوء فهل خاصمت نور النيرين ؟
يناقرني السنا فأفر منه كأن الضوء يطلبني بدين
وأجنح للظلام جنوح صب دنا لحبيبه بالرقمتين
وجاء يوم شفيت نهائياً فضت تنشد « أمني صفالي ! » على نحو ما تمت :

روحي بقربك قد نالت من الأرب
ما ترتضيه ، فرها في الهوى تجب
فضع يمينك فضلاً فوق مهجتها
تكف بالكف ما عانته من وصب
لا تنكرن مزايا الحب إن له
في الراحين لراحات من التعب

هذا معنى آخر مقتبس كسائر معانيها ، إلا أنه في الأصل ذا مغزى
بعيد . ففيه إشارة إلى مغناطيس اليد كم هو مؤثر فعال بين المحبين والأصدقاء ،
حتى بين الغرباء الذين لا تنافر بينهم . وهو قاعدة علمية تقوم اليوم عليها ،
أي على مغناطيس لمس اليد ، طائفة من تجارب التنويم المغناطيسي وكيف
لا يكون لكف الحبيب هذا التأثير ، والحب محور الحياة ؟

صب لقربك بالحياة يجود
إني له بعد البعاد وجود
بختام طبع الحسن قد طبع الهوى
في قلبه « هذا هو المقصود »

ولكن العواذل - لحاهم الله ! - عادوا إلى الاصطياد في الماء العكر ،
بتعبير كتابنا السياسيين في هذه الأيام . فهل من انتقام أتم من رميهم بالكفر ؟
كأنهم بعنادي عصبة كفروا ما حل في قلبهم صدق وإسلام

أما وهناك ما يؤدي إلى خيبة الأمل وصد العاطفة ، فتسخط شاعرتنا
ورغم الألم والمضض ، تجنح إلى الإعراض والنسيان :
غضضتُ نواظري عن غصن قد
وعفت حنين قلبي ، وهو روحي
فلو عقب الهوى قلبي ، وقالت
اذن روحي أروح ، لقلت روحي !
وأفكاري تسوح لفرط شوقي
فأطوي لوعتي ، وأقول سوشي !
لظبي قد بكت عيني ، وقالت
أنوح إلى النشور ، فقلت نوحسي !
وذاك ليله شرقاً وغرباً
لنفحات الغبوق مع الصبح



كان الناس في عصر عائشة يتلقفون الأدوار والموااليا ، تلك الأغاني
الشعبية التي يفهمها الجميع ويستلذونها بلا إجهاد ، لأنها تخاطب ألصق
العواطف وتحدث عنها باللهجة العامة . وتلك الأغاني ، كمجموعة المغني
العربي القديم والحديث ، تكاد تنحصر في شكوى الحب ، ولوم الحبيب ،
ووصف جماله ودلاله ، وعبادة ما نثر على وجنتيه من خال وشامة ، والتحرق
من جراء هجره ، والإبتهاال إليه وإلى الأيام والقدر ليروا جميعاً ما يحسن
صنعه لتسوية الأمور .. وقصائد عائشة الغزلية لا تعلق هذه الأغاني إلا بكونها
منظومة . لذلك سهل إنشادها . لا سيما الرباعيات التي يغناها في سورية
وفلسطين لبساطة معانيها وتراكيبها . كذلك سمعت أدواراً ومواالياً تنشد
في اجتماعات الأُنس وحفلات الأفراح ، ولم يدر المنشدون أنهم بإنشادهم

يلحنون روح التيمورية . كما أن كثيرين منا عندما ينشدون « قدك أمير الأغصان » و« الحلو لما انعطف » وغيرها ، يجهلون أنهم متشدون شعراً لإسماعيل صبري باشا . وأن كثيراً من الأدوار الشائعة هي من صنع أدباء كبار نحسبهم تحصنوا في معازل اللغة الفصحى مزدرين بالآدب الشعبي البليغ . وهالك دوراً من وضع عائشة :

حياتي بعد بعدك نـروح ووعدي ضيعك مني
دانت أنت الغدا للروح وليه ترضى البعاد عني ؟
وغيره :

أنا أحب الحب نفس الغرام روعي
وصبحت أول صـب الناس ترى نوحى
في قلب من جـوه والسـر هو هو
وهذا من المواليا :

يا ألف أهلاً ، ملك الحسن أهو قابل
وكل مضمـني بحسن الإمثال قابل
هاروت لحاظه أتى بالسحر من بابل
كم من ضنى تاهت أفكارو وقلبو داب
يا قلب ، تقبل كـدا ؟ قال لي نعم قابل



اشتهر كاردوتشي الإيطالي بموهبته الشعرية وبموهبته النقدية معاً . وكان يؤثر عنه كذلك ازدرائه بشاعرية المرأة . وله في ذلك رأي سار مسير الأمثال ، وهو أن اثنين عليهما أن لا يعالجا الشعر وهما : الكاهن المسيحي والمرأة . ولكثيرين من الناس في مواهب المرأة رأي لا يختلف عن رأي كاردوتشي ولست أدري هل قدر لهم ما قدر لكاردوتشي فحمله على تغيير

رأيه مما سجله بقلمه على نفسه في اغتباط يوم وضع المقدمة لمجموعة الشاعرة الإيطالية آني فيفاتي . ليس أظرف من إندجار هؤلاء العظماء بعد تعنتهم في بعض الآراء غير الناضجة ، ولا أصرح من اعترافهم بالخطأ اعترافاً خلا من التحفظات والاستدراكات والمداورات التي تشغل جماعة من الكوييتيين وذوي المدارك المحدودة ، أولئك الذين كأنهم لا يفتأون يقولون : أعترف ، ولكني لا أعترف . صحيح ، ولكنه غير صحيح . جميل ، وهذا مع ذلك غير جميل !

عدل كاردوتشي رأيه بعد مطالعة أشعار اليزابيت براوننج الإنجليزية ، ومدام ديبور فالمر الفرنسية ، وآني فيفاتي الإيطالية ، مصرحاً بأن لدى المرأة شيئاً تقوله غير ما تنسخه عن الرجل . ولا عجب في قوله بل العجب في قول المناقضين . لأنه مهما فآخر الرجل بعقريته التي نجها ونعجب بها ونستحثها فيه ، فهو لا يستطيع أن يزعم أنه الطبيعة البشرية كلها . لأن الطبيعة لم ترده أن يكون أكثر من النصف الواحد من الذات الإنسانية المكتملة فإذا به هذا النصف النشط البارع الجميل الذي أوجد لنا ما نتمتع به اليوم من محاسن الحضارة والثقافة ... ومن الباقي الذي نشقى به وهو غير خير وغير حسن ...

أما النصف الآخر فهو المرأة ، النصف الذي ظل إلى اليوم مهملًا ، إن لم يكن مكموماً مسحوقاً . النصف الذي قد يذكر أحياناً بصفته غير موجود في ذاته ولا حق له على الحياة والحرية ، وكل الغرض منه هو إخراج النسل ليس غير . هذا الرأي شائع كثيراً ، بيد أنه لا يتناول الأقلية المنصفة من الرجال الذين هم في الحقيقة نهبونا إلى نفوسنا ، ولهم الفضل الجزيل في تشجيعنا وإرشادنا ومساعدتنا .

بدهي المرأة في بادئ الأمر تقلد الرجل تقليد التلميذ للمعلم ، تقليد الصغير للكبير . بدهي أن تفعل ذلك في مجموعها المستيقظ . ولكن تنفلت

من كل تقليد واحتذاء صاحبات العبقرية منذ ظهور نزعتهن ، مثيلات سافو ،
ومدام دي ستيل ، ومدام دي نواي معاصرتنا التي فازت العام الماضي
بجائزة الآداب من الأكاديمية الفرنسية ، ومتليدا سيراوو التي يشبهها بول
بورجيه بيلزالك الكبير ي رواياتنا المشبعة بحياة الشعب وبوصف عاداته
وإنفعالاته وآلامه .

إن عواطف المرأة وتأثراتها شيء بشري مشروع . وبالمران تتعلم
الاستسلام لطبيعتها النسائية والركون إليها في الإهتداء إلى التعبير ، بعد أن
لجمت خوالجها قروناً طوالاً . والصيحة التي ترسلها الآن ستفتح في إدراك
البشر وفي آدابهم أفقاً جديداً .

أثبت هذا في إيمان وهدوء ، دون تحيز ولا تعنت .

إنما نحن من الذات الإنسانية الواحدة الجهة المائلة إزاء جهة الرجل ،
فنختبر إذن بفطرتنا ما لا يستطيع الرجل أن يعرفه ، كما أن اختبارات
حضرتة تظل أبداً مغلقة علينا . وإذا قدر للمرأة المصرية أن تلج باب الشعر
والأدب وتمعن في المسير في ما وراءه من فسيح المسافات كان مرجع الفضل
إلى التيمورية التي نشرت أول علم في الجادة غير المطروقة ، وبكرت في إرسال
الزفرة الأولى أيام كانت تكتم الزفرات وكان إرسال الصوت في عالم
الأدب يحسب للمرأة عاراً وجريمة . ويوم ينمو الأدب النسائي في هذه
البلاد فيجيء حافلاً بحياة فنية غنية ، ستظل أناشيد عائشة - هذه الأناشيد
الساذجة - لذيذة محبوبة كترنيمة المهد القديمة التي هممت لنا بها أمهات
أمهاتنا ، شجيرة مطلوبة كشدو القصب القائل في ظل النخيل : إن وراء
المشاغل والهموم ، يلبث القلب البشري معذباً بظماً لا يرتوي ، مثقلاً
بحنين لا يعرف الإكتفاء والنفاذ ...

شعرها الأخلاقي والديني

كنا في الفصل السابق في أنس وبهجة وكأنا في ليلة من ليالي الأعراس .
لأن شعر عائشة الغزلي كان مستحضراً لنا نغمة القصب ، ونقرة الدف ،
وشدو المغنى ، أما هذا الفصل ، فإنه سينقل بنا من « مجلس الإنس الهنيء »
إلى ما يشبه خطبة أخلاقية . فكأننا اليوم نقول مع عائشة :

تركت الحب لا عن عجز طول
ولا عن لوم واش أو رقيب
ولا من روع زفـرات التصابي
ولا من خوف أجفان الحبيب
ولا حذر الفراق وخوف هجر
به تجري المدامع كالصبيب
ولكني اصطفت عفاف نفس
تقر بصفوه عين الأريب

والواقع أنني لم أكن مخيرة في إنتقاء هذا الموضوع ، بل أنا مرغمة
عليه بحكم سياق البحث وإنسجامه . أما عائشة فتقول إنها « لصطفت عفاف
النفس » ولماذا ؟

وذاك لأنني في عصر قوم
به التهذيب كالأمير العجيب

نستطيع أن نجعل هذا البيت حداً فاصلاً بين ما نظمته التيمورية للمجاملة
والمحاكاة والرثاء وتبيان العواطف وبين ما نظمته لتأدية رأي لها في شؤون
المجتمع ، وتبصر في أحواله وأخلاقه بين طوارىء الزمان وتقلبات الأيام .

ورأيها وتبصرها لا تتفرد بهما ، بل هما شائعان لا سيما بين الشرقيين .
ولكن يهمننا هنا منهما أن شاعرتنا عمدت إليهما وأخذت بهما ، ولو من
وجهة سطحية . إن عائشة لم تتعمق أصلاً في فكرة أو في عاطفة . بل كانت
تكفي بالناحية المطروقة وترضى لها بالتعبير المألوف . ولكن لا ننسى
أنها المرأة المصرية الوحيدة في عصرها التي أقدمت على ما لم تدرك أهميته
يومئذ مئات الألوف من النساء ومن الرجال أيضاً .

ولقد ألمعت غير مرة في شعرها وفي نثرها إلى ما بينها وبين وسطها
من عدم التفاهم . وهاكن أبياتاً تدل على ما حاولته في سبيل التآلف والتفاهم ،
في حين وسطها لم يبذل من ناحيته جهداً ولم يبد للملاقاتها اهتماماً :

عقدت عزمي وهم حلوا عزائمهم
وفي العزائم محلول ومعقود
ما طابقوا حين لم يبدوا مجانسة
ولا تشابه معدوم وموجود
أبدي اتلافاً ويدون الخلاف ، وقد
غدا لهم في جيوش الهجر تجريد
وكم أقابلهم مستنجزاً ، ولهم
لسوء حظي ، في الأعراض ترديد
لو للسعادة عين في مساعدي
ما كان لي ساعد بالطوق مشدود

هي تعني أن السعادة لو شاءت أن تساعدنا ما كانت أوجدتها مقيدة
بقيود هذه البيئة ، خاضعة لظلم الوسط الذي يرهقها . وهنا نتأكد مرة
أخرى أنها لم تكن سعيدة . وسنفهم شيئاً فشيئاً أنها كانت تتألم من إنفرادها
الأدبي ، وسط المجهود الذي تبذله في رجاء ونشاط فيؤوب عليها مقاومة
وفشلاً . فإذا بها تلقي إلينا بهذه النصيحة غير الجديدة :

لا تفرحن بدنينا أقبلت وصففت

بكل ماترتضي ، واحذر عواقبها !

وعلام هذا التحذير ؟ لأن من صفت له الدنيا من ناحية تجهمت له
من ناحية أخرى . لأن الصفاء نفسه لا يدوم ، وقد لا يطول حتى يتقلب
كدرأ . فخير شيء وسط هذا التحول في العسر واليسر ، انتهاز طريق
العفة والإستقامة والصلاح :

ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته

وما السعادة إلا حسن أخلاق

وهي تعطينا نصائح أخرى لتشرح لنا قليلاً ماذا تعني بالأخلاق الحسنة :
فمنها عدم الركون إلى المملقين ، ومنها الإقلاع عن البخل وعدم التعلق بالمال
والقناعة :

رب الدراهم أحصاها وعددها

في حصن أكياسه ألفاً على ألف

والحمد لله إذ عدي لمسبحتي

وعن سواها تراني قاصر الطرف

ومنها حفظ اللسان ، لأننا جميعاً بشر تشوهنا العورات :

احفظ لسانك من ذم الأنام ودع

أمر الجميع لمن أمضاه في القدم

معايب الناس لا يكبرن عن غلطسي
إذا نمت بها في محفل الممم

ومنها صيانة النفس :

وما احتجائي عن عيب أتيت به
وإنما الصون من شأني وعاداتي

ولو كنا في مجال المناقشة كنا أثبتنا أن الصون لا يقوم بإسدال الخمار ،
كما أن التبذل ليس قائماً بالسفور . إنما الصيانة والعفة ملكتان نييلتان من
ملكات النفس ، تأخذ بهما المرأة بصرف النظر عن زي الثوب وهندام
الرأس . وسرى عندما ننظر في آراء أخرى لعائشة أنها إن هي فاخرت
بالحجاب في شعرها فهي تشكوه في نثرها ، لأنه حرمة مجالسة أهل الفضل
والأدب وحال دون الاستزادة مما ترغب فيه من علم ومعرفة .

أما الآن فحسبنا الإصغاء إلى بقية ما تقول مفاخرة بالحجاب . هي
تفاخر ، ونحن نوافق على هذه المفاخرة التي نود أن تكون نشيداً للصيانة
النسائية الأخلاقية ، ونتمنى وجود هذه الصيانة الأبية ، وبأرقى مظاهرها ،
عند كل امرأة وكل فتاة . وهذه هي أبيات المفاخرة الوحيدة في شعر عائشة :

بيد العفاف أصون عز حجابي
وبعصتي أسنو على أتـرابي
وبفكرة وقادة ، وقريحة
نقادة قد كملت آدابي

ومنها :

ما ساءني خدري وعقد عصابتي
وطراز ثوبي واعتزاز رحابي

ما عاقتي خجلي عن العليا ، ولا
سدل الخمار بلمتي وتقايي
عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت
صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتي في راحتي وتفرسي
في حسن ما أسعى لخير مآب



نيات صالحة وآراء طيبة . بيد أني إذ أراها مؤكدة المرة بعد المرة أن
السعادة في حسن الأخلاق يخطر لي أحياناً أن أقول : كلامك يا سيدتي
على الرأس والعين ، لكنني لا أراه متطابقاً والواقع . الشعر الأخلاقي غير
الشعر الغزلي . هذا يلقي إلينا بما شاء من العواطف والخيالات والأمانى
فيروقتا ونطرب له . أما الشعر الأخلاقي فشيء آخر . إنه يلقي عليّ درساً
ويختط لي طريقاً . فلي الحق أن أناقشه إذا هو لم يفلح في إقناعي بقوله أن
السعادة في حسن الأخلاق وفي صيانة النفس وفي حفظ اللسان ، إلى آخر
ما يسديه إلي من النصائح . فهناك إنساناً صالحاً لم يجن إثماً ، ولا يؤدي أحداً .
ويعبد الله ويسالم الناس ، ويتكل على ذاته في العمل ليل نهار متبادلاً وإخوانه
البشر منافع العمل وحسناته . ورغم كل ذلك فهو ليس بسعيد ، في حين
فلان ، وهو سيء الخلق لا يراعي في معاملته ذماماً ، ولا كرامة ، ولا
عدلاً ، ولا حقاً ، فهو مع ذلك سعيد تبسم له الدنيا ويساعده الحظ في
جميع شؤونه . ثرثار ، طويل اللسان ، طويل اليد ، الاغتياب دأبه ،
والنفاق ديدنه ، وبرغم ذلك فالناس له مصادقون وأوفياء يعزونه ويكرمونه
ويهابون جانبه . فكيف اهتدي إلى الصواب وسط هذا التناقض المبين ؟
علام يرغد المنافقون والدساسون حولي ، وأنا من الرغد والطمأنينة محروم ؟

وأولئك الذين يمزقوني بافترائهم وتطاولهم ، ترين بماذا أجيبهم وكيف
أعاملهم ؟

عبثاً نلقي على شاعرتنا هذه الأسئلة ، أنها لا تعطي عنها جواباً . بل تحدثنا
عما تفعل هي عندما تتألم من مثل ما يؤلمنا وكيف أنها اتخذت من النوائب
وسيلةً للتشدد والتقوى والتغلب على النفس المتوجعة وعلى العالم الظالم :

كم قابلتني ليالٍ ريحها سحر
بطيئة السير ترمي بالشرارات

لاقتها بجميل الصبر من جلدي
وبت أسقي الثرى من غيث عبراتي

كم أقعدتني أيام بصدمتها
وقمت بالعزم مشهور العنايات

وأما كلام الناس ، أغبياء كانوا لا يدركون فضلها أم كانوا حساداً
يتحرقون من تفردا ، فإنها تحتمله بتجلد وأدب ، ولا تشكوهم لأحد
لأنها لا تجهل ما يصطنعونه من إهتمام في الظاهر وهم في سرائرهم غافلون
أو مبتهجون . وإن هم من تلقاء أنفسهم تعلموا عندها الإهتمام والعطف
أو جأهروا باللوم والنقد تظاهرت هي بالرضى وحدثتهم عن « ابتهاجاتها » :

وكم حليفة سعد إذ تعنفني
تقول سعيك مذموم النهايات

فأخفض الطرف من حزن أكابده
وأهمل الدمع من تلك المقالات

ومنها :

ومذ أنت عدلى تبغي مصادرتي
ظلماً ، منحتمو أسنى الكرامات

وكلما عددوا ذنباً رميت به
بسطت للنفو راحات اعترافاتي

ولم أفسه لذوي رد لمعرفستي
إن الحبيب حبيب في المسرات

أقوم والضيم تطوينني نوائبه
طي السجل ، ولم أسمع أناشي

أخفي الأسى إن حسود جاء يسألني
لأين تسعى ؟ وأومي لإبتهاجاتي

وعلام هذا الإحتمال ؟ ولماذا يكون بين الناس المحظوظ والمغبون ؟
الجواب عندها امثال كتيب :

أقول للصبر : لا عتب على زمن
أعطى لأبنائه أسمى العطيات

فيحدثها الصبر بحكاية تقلب الأيام ، فتتذوق الحديث كأن فيه بعض
التعزية :

فقال : مهلاً ، ولا تفررك شوكتهم
فالصحو يعقبه سود الغمامات

فليس كل ملوم دام مكتئباً
وما السعيد سعيد للملاقاة

فدهرهم غرهم جهلاً وما علموا
إن الزمان قريب الالتفات
بيد أن هذه التعزية لا تطيب خاطرها ولا تقنعها ، فتعود في آخر القصيدة
إلى الشكوى والتضرع :

ربي إلهي معبودي وملتجئي
إليك أرفع بشي وابتهالاتي
قد ضرني طعن حسادي ، وأنت ترى
ظلمي ، وعلمك يغني عن سؤالاتي
ومنها :

فكيف أشكو لمخلوق ، وقد لجأت
لك الخلائق في سر وشدادات
فيا لها من جراح كلما اتسعت
أعيت طيبي رغباً عن مداواتي

وهكذا نحن من شعر عائشة الأخلاقي في دائرة صغيرة لا تنفحنا بمتين
الحجة أو بمكتمل الرأي القائم بنفسه . بل نعثر فيها على الكلمات المسكنة
من صبر وتجلد وإنذار بأن الأيام متقلبة لا تدوم على حال . ودفعاً للألم
تتمنى عائشة أن تتجرد من كل شعور وكل رجاء ، وكل اغتباط ، وأن
لا تنتظر السعادة كيلاً تفاجأ بالفشل والخيبة :

فلا تقل لي متاع وهو عارضة
واليأس عندي راحات اعترافاتي

على أن الراحة الكبرى عندها في الصلاة وفي الإلتجاء إلى الله الذي هو وحده يُسعد ويشقي . وهذه العاطفة تصل بين شعرها الأخلاقي وشعرها الديني فتجعل منهما مزيجاً واحداً .



لقد تغذت الإنسانية منذ فجر تاريخها ، بعواطف أولية قليلة استدرت منها كل نشاطها وما فتئت تسوقها في جهادها . وتلك العواطف منها الحسن ومنها السيء . ومن مظاهرها ما هو صالح ومنها ما هو طالح . ومن تمازج هذه العواطف في نفوس الأفراد وفي نفوس الجماهير تتكون الرغبات والشهوات والانفعالات التي تتلاطم وتتعارض فيما بينها . فينجم عن تباينها ومضيقها في الاسترسال ما نسميه التطور الإنساني الذي نشهد منه هذه الصور الرائعة دهرًا بعد دهر في ازدهار الحضارات ، وفي كل ما يهتدي إليه الإنسان من إكتشاف علمي واختراع آلي ، ونظام اجتماعي ودولي ، وابتكار فني وأدبي .

ومن تلك العواطف الإنسانية الإعجاب بمكارم الأخلاق الذي نجده حتى عند أخط الجناة غريزة ، ومنها العاطفة الدينية المتلونة بشتى الألوان على تنوع النفوس ، حتى لتبدو أحياناً في مظهر يزعمه البعض « كفرة » . على أنها متأصلة عريقة في قلب الإنسان الذي يروعه هذا الكون العظيم فيتساءل منذ الذي أنشأه . ويذهله النظام الدقيق في الفلك الدائر ، في نمو النبات ، في سنن الحياة فيبحث عن الغاية التي من أجلها ينفذ هذا النظام . ويجزع مما يهدده من حاجة وألم ومرض وعجز ونكبة وموت فيلجأ إلى بداهة القوة العليا المهيمنة على عوز البشر وبؤسهم ، ويبتهل إليها مستسلماً لعوامل رحمتها وأحكام حكمتها . هذه هي البواعث الأساسية للشعور الديني الذي

يسبك فيما بعد كل نفس في قالبها الخاص . ولقد كانت العاطفة الدينية حية كل الحياة عند شاعرنا ، وقد سمعت من شقيقها المفضل أحمد تيمور باشا ، أنها كانت تقيّة تصوم وتصلي وتقوم بجميع الفرائض الدينية . على أن شعرها الديني لا تعمق فيه ولا روعة . هو كسائر شعرها ، يتناول النواحي المألوفة المتداولة . ويمتزج بالعاطفة الأخلاقية من حيث الإعراف بالذنوب والرغبة في التوبة ، ومن ثم يبدو فيه الإستعداد لساعة الرحيل ، وذكر هذه الساعة يحملها على وصف ما يحول في القلوب من طمع حيال سرير المحتضر أمام حشجة الترع ، حتى عند هيل الثرى على نعوش الأقربين . وفي هذه الأبيات سخرية طفيفة في مس من الكآبة على ما يبذله الحي من مجهودات لحشد المال :

أراك بلمتي ، يا شيب ، عظمي
وقد حان الرحيل غداً ، لعلّي !

فأول ما نرى حدث مهول
تهيل ثراه كف أخ وخل

وقد رجعوا كأن لم يعرفوني
وهم نسي وأبنائي وأهلي

وتشتغل البنون بقسم مال
أنا من حشده في عظم شغل

وليست عائشة بغريبة عن الشعور بحيرة النفس وتردها بين ما يحتاجها
من عوامل الإغراء بملذات العالم وبين نزعها إلى البر والتقوى :

كيف المسير إلى أرض المنى وأنا
بطاعة النفس في قيد الضلالات ؟

والجواب في الابتهاال الذي أَلْفناه عند عائشة ، وهو الذي يدعو إلى
نعت هذا الشعر بالابتهاالي :

إن كان عصياني وسوء جنائي
عظماً ، وصرت مهدداً بجزائي

ففضاء عفوك لا حدود لوسعه
وعليه معتمدي وحسن رجائي

يا من يرى ما في الضمير ولا يرى
إني رجوتك أن تجيب دعائي

يا عالم الشكوى وحر توجعي
دائي عظيم القرح ، جد بدوائي !

بحبيبك الهادي سألتك دلي
لعلاج أمراض وجلب شفائي !

وهذا الشعر المبتهل من شاعرة مصرية شرقية مسلمة يعيد إلى ذكرى
القديسة تريزا الإسبانية الأوروبية المسيحية ، التي عاشت في القرن السادس
عشر وأسست رهبنة الراهبات الكرمليات ، وقد لقبت « بالعدراء الساروفيمية »
نسبة إلى الملائكة الساروفيم لفرط تقواها ، ونقاء نفسها ، وروحانيتها الحارة ،
وشغفها بالسيد المسيح الذي كانت تتخيل أنه يتجلى لها ويخاطبها في ساعات
الإنعطاف والرؤيا . وقد نظمت شعراً ابتهالياً جميلاً في لغتها الإسبانية ،
أشهره نشيد وجيز ترجو فيه من الله أن يمن عليها بالموت لتتجرد من ثوب
التراب فتراه عندئذ وجهاً لوجه . فهي في ذلك النشيد الملهب تقول :

نشيد القديسة تريزا

« أحيا دون أن أحيا في نفسي ، وانتظر حياة هكذا رفيعة - حتى
أني لأموت لأني لا أموت .

« وأني ليزيد في كلقي

« أن أرى إلهي لدي سجيناً حتى أني لأموت لأني لا أموت .

« انظر كيف أذوب شوقاً إلى رؤياك ، ولا طاقة لي على الحياة بدونك ،
حتى أني لأموت لأني لا أموت .

« فمتى يتيسر لي ، يا إلهي ، أن أقول القول الفصل بأني أموت ،
لأني لا أموت » !

ولكن الفرق بين الشاعرتين أن القديسة المسيحية واثقة من رضى الله
عنها ، عالمة بحبه لها ، وإنما تعذبها قيود الجسد التي تشد وثاقها بالأرض وتحول
دون فناء روحها في روح الله . ففي صيحتها شيء من التدلل على المحبوب ،
وفيها كذلك صدحة الشوق والنشوة والظفر ، أما التيمورية فبهلة في لهجتها .

ولكأنما كانت تأس لولا رحمة الله الواسعة ولولا شفاعة النبي الكريم
الذي تلوذ بحماه وتترنم بمدحه وتمجيد أمته :

طه الذي قد كسى إشراق بعثته

وجه الوجود سناء الرشيد والكرم

طه الذي كللت أنوار ستنه

تيجان أمته فضلاً على الأمم

نعم الحبيب الذي من الرقيب به

وهو القريب لراجي المجد والنعم

روحي الفداء ، ومن لي أن أكون له
هذا الفداء ، وموجودي كمنعدم
وما هي الروح حتى افتديه بها
وهي البغاث بغار الظلم والظلم
ومنها :

ولا يحيط به مدح ولو جعلت
جوارحي ألسنا ينطقن بالحكم
وما سوى عز كوني بعض أمته
ذخراً أفوز به من زلة الوهم
إلا التماسي عفواً بالشفاعة لي
من خاتم الرسل خير الخلق كلهم



رأينا في هذه المقابلة الصغيرة ، أنه كما يتلاقى البشر في أبحاث العلم
وضروب الفن والأدب والفلسفة والحكمة ، وكما يتفاهمون بالحب وابتغاء
الخير العام وبالمعاني الإنسانية الرفيعة ، فكذلك تتوحد عواطف البر والتقوى
وبحب الله في قلوب الصالحين .

امرأتان مختلفتان ديناً وجنساً وقارة ، تعيشان على تباعد ثلاثة قرون
وتزيد ، في بيئتين ، كل منهما غريبة عن الأخرى ، وهما مع ذلك تناجيان
إلهاً واحداً لا إله إلاه ، وتصليان صلاة واحدة محافلة بالأمل وبالإنكسار
وبالثقة في لغة الغرب وفي لغة الشرق على السواء .

وبين ما يبدو الآن في الشرق من جديد العوامل والتزعات ، نجد الدعوة

إلى وحدة قومية ووحدة إنسانية مع احترام العقائد الدينية ، وترك الحرية لكل فرد يتمتع بها دون التعدي على حرية أخيه ودون أن تعمل هذه العقائد المتباينة على تفريق الكلمة وتمزيق الشمل . وأسجلها مفخرة لعائشة أن نجىء بقول له ، فوق قيمته التاريخية والأدبية ، ما يمكننا من هذه المقابلة الجميلة فيتيح لنا الإلماع إلى هذه الوحدة النبيلة التي يتفشى الآن حبا في ربوعنا ، والتي يتصافح عندها ويتصافى بنو الإنسان .

الفصل السابع

نثرها

١- كتاب "نتائج الأخوال"

٢- كتاب "مرآة التأمل في الأمور"

نتائج الأحوال

أما الشعر فقد قرضته عائشة تحدياً لبعض من سبقنا من « ذوات الخدر والأحساب » ، أو كما قالت :

ما قلته إلا فكاهة ناطق يهوى بلاغة منطق وكتاب

وأما النثر فقد عاجلته لملء ساعات الفراغ الطويلة التي لم تكن لتستنفدها محبة الأبناء وواجبات المنزل ، ولياقات المجتمع ، وفروض العبادة ، ونظم القصائد ، وقد شعرت قليلاً قليلاً بأنها تحب أن يكون لديها بلاغ تؤديه إلى قومها . وأما هذا الكتاب خاصة « نتائج الأحوال » ، فهي تطلعنا في مقدمته على بواعث انشائه ونخبرنا كيف كانت دواماً تميل إلى استقصاء أحاديث السلف وتحب مسامرة الكبار ومجالسة العجائز لتسمع أخبارهم « وألتقط من تلك النوادر أعاجيب القدر » . ولما تم لها ذلك وأنشأت تطالع « من التواريخ ما قدرت قدرتي أن تدانيه ، وما أمكن فكري الخادمة أن تصل إلى معانيه » . « ولما تأملت في سير الأمم ، وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر من القدم ، وقد شاهدت والله في نفسي صدق هذا الخبر ... فدعيتي الرأفة بكل مغبون لقي ما لقيت ، ودهي بما به دهيت ، إلى أن أبدع له أحدىثة تسليه عن أشجانه عند تراحم الأفكار » ...

إذن فلتعتمد هي إلى تخيل الخيالات ونسج الحكايات . ولن يكلفها ذلك أكثر من جمع شتات ما قر في ذهنها من حكمة العجائز وما يتطابق

وإياه من تجاربها الشخصية ، لتدوين آراء شائعة مقبولة في أحوال هذا الناس :
في السعد والنحس ، في الصبر والمواساة ، في الخيانة والوفاء ، في الحب
والكراهية ، في القضاء والقدر ، في التربية والأخلاق ، وفي ما يستتبع
المصائب والرزايا في النفس الرشيدة من تقويم ورجوع عن الغي والضلال .

« نتائج الأحوال » هو بالجملة من رواسب تلك القصص التي سمعناها
في طفولتنا ، خلال الليالي الساهرة في زمهرير الشتاء وهزيم الرعد وتدفق
الأمطار . فتمتعا منها بلذاتين اثنتين : لذادة التحرز من غضب الطبيعة
وصقيعها في ملجأ دافئ ، ولذادة الإستماع إلى سير الملوك والأبطال والجان
والعاشقين يتصرف بهم القضاء والقدر ، لينتهي بنا الأمر في الغالب إلى
اندحار الشر وإنتصار الخير .

فإذا تطلعت إلى خلاصة « نتائج الأحوال » فهب أنك تصغي إلي في ليلة
صاعدة ممطرة وأنت في ثوب الطفل الغرير ففي هذه الحال تذوق حكايتي
بما فيها مما وعيته من أقاصيص الماضي الساذج .



هذه ككل قصة قديمة تحترم نفسها ، فيها ملك وابن ملك ووزير
ونديم ، وعريس وعروس ، وغير ذلك كثير . وإليك أسماء أهم
الشخصيات :

العادل - ملك عظيم صالح منصور .

المدحوح - ولي عهده ، محور آماله ومطمح آمال الشعب . وهو بطل
الحكاية .

عقيل - الوزير . وهو واسع الإدراك حاذق التدبير ، وقد فوض إليه
الملك أن يدير شؤون الدولة .

مالك - النديم . ويظهر أنه على غير ما يستحسن في النديم من عذوبة المنطق وبراعة الظرف ولطف السمر « ولم يبد من أولئك شيء في سياق القصة » . فهو ذو مواهب خلقية كالوزير من حيث الإستقامة والوفاء والحصافة وسعة الإدراك وحسن التدبير . قد يحار علماء النفس حيال مثل هذا التركيب السيכולوجي ، لكن حيرتهم لا تغير الواقع .

دشنام - قيم على خزينة المال .

غدور - قيم على خزينة السلاح .

بوران - ابنة ملك العجم وخطيبة الممدوح . مشهورة بسداد الرأي ، وذكاء العقل ، وحسن الإدارة .

أما « حبكة » القصة فنشأها أن الملك مولع بولده ، شأنه شأن الكثيرين من الآباء في الشرق من حيث يسيء فهم المحبة الوالدية ويحسبها قائمة في إنالة الولد جميع مطالبه وعدم التعرض لصد أهوائه . أخذت تظهر نتائج هذه التربية السيئة في سلوك الغلام وفساد أخلاقه ، فلم يجرؤ على لفت الملك إلى ذلك سوى الوزير والنديم . لكنهما لم يحدثاه في ذلك مباشرة ، بل في حديث رمزي طويل ذكرا فيه حديقة فيها غصن لم يحسن تقليمه . فأدرك الملك اللبيب غرضهما ، وأفحمته حجتهما ، وندبهما لتثقيف ولده وتعليمه . فقاما بذلك خير قيام ، وبدأت نتيجة جهودهما في زمن قصير بتحول التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح إلى وجهة الصلاح والسجاجة . ولا تسئل عن سرور الملك ! إنه عبر عنه تعبيراً فاخراً بالطريقة التي ألفها ملوك الحكايات في عطفهم على من يحسن في سبيلهم البلاء ، ويخدمهم في صدق ووفاء .

وإزاء هذين الرجلين الأمينين لمولاهما ، ولوظيفتهما ، وللمصلحة

العامة « إذا جاز مثل هذا التعبير في الحكايات القديمة » نجد مثلاً شنيعاً للحسد والخيانة والدسيسة في القيمين دشنام وغدور . فقد أخذهما الإستياء من نجاح الوزير والنديم . فدأبا ليفسدا عليهما الأمر بتملق الأمير الصغير وإيغار صدره على هذين اللذين يقصيانه عن أندية اللهو والمرح ، ويبعدان بينه وبين والده بحجة التعليم والتهديب ، بينا هما في الواقع يكيدان له لانتقاص سطوته وكرامته وتنغيص حياته .

وتبع ذلك جهاد صامت عفيف بين الفريقين : فتارة ترجح عند الأمير كفة الإخلاص والإستقامة ، وتارة يستسلم لصوت الوشاية والإقتراء . وتم الفوز للدساسين في النهاية ، لأن الحقيقة كثيراً ما تتخاذل وتتوارى في تعمل الغيرة والتفادي ، وكثيراً ما يظفر الخونة والمحتالون ، فخرج الفتى على أستاذيه الصالحين ، وقاطعهما ، وتوعر خلقه ، وتفاقت شراسته . وأراد الوزير أن يتلافى الأمر بالتى هي أحسن ، فاقترح على الملك أن يزوجه . فوافق الملك على هذا الإقتراح . وأنفذ وزيره إلى إيران يفاوض ملك العجم في خطبة ابنته بوران المشهورة بسداد الرأي ، وذكاء العقل ، وحسن الإدارة . ومضى النديم إلى الشين « الصين » ؟ لإحضار أمتعة الزواج وجهاز العروس . وخلا الجو للدساسين قرب التلميذ المنقلب عريساً بين عشية وضحاها . فحزن الملك جد الحزن لشراسة ولده ، وتعاون الغم والشيخوخة على تهديم صحته وأشرف على الموت . وماذا عسى يصنع المشرف على الموت ؟ أنه يستدعي إليه ولده ليزوده بالنصائح . وذاك ما فعله الملك العادل . بيد أن المنية عاجلته قبل أن يعمن في الكلام ، فقضى نجه بين ذراعي ولده مأسوفاً عليه من هذا الولد المسكين .

وهنا - وقد سنحت للدساسين الفرصة التي تربصا لها طويلاً - قام القيمان

بتمثيل الفصل الثاني والأهم من دورهما . فأوهما الشعب بأن الملك ما زال على قيد الحياة ، غير أنه لمرضه وضعفه عهد اليهما هما القيما ن بإدارة شؤون الدولة وشؤون ولده . وأنفذا الفتى إلى المجلس يحمل كتاباً مزوراً في هذا المعنى ، والفتى في حزنه على والده مشرد الفكر ، لا يعرف مضمون الكتاب . ومن ثم يجهدان للتخلص من هذا الفتى فيقوضان أمر الفتك به إلى عبيدين يقودانه إلى خارج المدينة للقيام بمهمتهما الغادرة . لكنهما تأخذهما الشفقة عليه ، فيكتفیان بإبعاده إلى مكان لا يستطيع العودة منه إلى المدينة .

ومن الناحية الأخرى ، لا يفوت القيمين الأفاكين إبلاغ الوزير في إيران أن الأمير عشق صبية من بنات الإفرنج وجرى في أثرها ، فعلى الوزير أن يمضي في العالم ليجث عنه . ويكتبان إلى النديم أن الأمير خرج إلى الصيد فشرد به الجواد « وأنساب ذاك الفرس إلى ضيعة حرسها عبيد » فليجدن إذن في طلبه بين العبيد . أين ذلك ؟ هنا على مقربة منا ، يا أصحابي ، في السودان ! أجل ، في السودان .

وها هو ذا صاحبنا الوزير يطوي البراري والقفار ، وينتقل من دار إلى دار : وها هو ذا صاحبنا الآخر ، النديم ، يذرع شواطئ النيل في أعاليه ، ويفتش في أقاصي السودان وأدانيه . وينتضي زمن غير قليل وجميع أقطاب القصة « بما فيهم أنا التي اقرأ لألخص » في مثل تيه بني إسرائيل يعمهون ! وليس من سبيل يتبع في « نتائج الأحوال » سوى اشتباك القصة الصغيرة بالقصة الصغيرة ، وإرتباك هذه بقصة غيرها ، على نحو حكايات « ألف ليلة وليلة » و« كليله ودمنة » . وإذ كنت أنا وأصدقائي أشخاص الرواية نجوب الكتاب لنعثر بعضنا على بعض فلا نفوز بغير التطوح والتنائي ، كم ذا سألت الله أن يأخذ بيدنا فيجمع شملنا ويرد لهفتنا ! لا سيما

الفتاة العروس بوران التي ما علمت بما جرى لخطيبها حتى طلبت الإنفراد في عزلة عن الناس . وأراد والدها أن يزفها إلى ابن أخيه ليتدارك الحال ويحول مجرى أفكارها قبل الاستفحال في الجوى . ولكنها أبت ، وفرت إلى حيث لا يعثر عليها ! لأنها على نحو ما ينشد الشيخ سلامة حجازي في الجراموفون :

عرفت هواكم قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً خالياً فتمكننا

وكم كان يغيظني أننا بينا نحن « أي أنا والصلاح من أهل الرواية »
تعبث بنا الأقدار وتجد بنا النوى فنتقل على مثل جمر الغضى ، إذ بالغاصبين
الخائنين يسرحان في بغداد ويمرحان ، لهما تضرب المدافع وتنتشر الألوية ،
ولهما تقدم الرعية فروض العبودية والإكرام !

بيد أن للأيام دورتها ، وأخذت تتحول الأمور على ما يرام . فتلاقى
بدياً الأمير والنديم فعجلاً بالذهاب إلى إيران ، حيث تسوق الفتى أشواقه .
فهو كعروسه . قد وقع الهوى من نفسه مكاناً بعيداً . وظل في مصائبه ويأسه
يلازمه خيال الفتاة التي وعدوه بها دون أن يعرفها . وكان للأمير والنديم
في إيران رحلات عديدة غير موفقة . إلى أن أقبلأ أخيراً على جبل شاهق
فاذا هناك إشارة تركها لهما الوزير تدعوهما ، فيما لو اهتديا إليها ، إلى
العراق مباشرة .

فعادا مباشرة إلى العراق واجتمعا بالوزير وهو في زي ناسك ، ولك
أن تطلق هنا العنان لمخيلتك فتتصور ما شاء لك التصور من سرور وحبور ،
من بكاء وإغماء ، يتلوه يقظة ، فسلام ، فكلام يناسب المقام . وانضم
إلى هؤلاء الثلاثة العبدان اللذان أبقيا على الأمير ، وكان القيمان الغاصبان
قد أرادا الإيقاع بهما لإنكشاف فعلتهما ، فأخفق الخائنات ونجا العبدان

الوفيان . وكان هذا التلاقي مبعثاً لمؤامرة طويلة ، وقد آل كل من المتآمرين على نفسه ليصر عن الآفة بالآفة ، ويفلن الحديد بحديد مثله ، وآزرهم طيبب الملك ، ودبر لهم الحيل ، فكان الفوز حليفه في كل ما دبر . فأوفد إلى أصحابه المتآمرين عدداً من الرجال ، وحفروا نفقاً يمتد إلى قلب المدينة ويفضي إلى خزينة الدولة ! وأبى السعد إلا أن يكلل مساعيهم بالنجاح وإلا أن يهيء لهم الأفراح والليالي الملاح ، فلم شملهم بالعروس بوران ! لست بواصفة لك مشهد إجتماع العاشقين السعيدين بعد طول الفراق ! حسبي أن أتمنى لك مثل هذه الساعة مع من تهوى ... وعندما آن الأوان ليثوب كل من الحبيين إلى رشده ، جاهرت الفتاة برغبتها في العودة إلى الوطن ليزفها أبوها إلى خطيبها بالأبهة اللائقة بالملوك . « لا بُدَّ لي أن أتوصل إلى بلادي بشرفي - تقول بوران : وأدخل قلعة أبي بصيانتني ثم يعثني هو إلى هذا العزيز بالصيانة » .

وكذلك كان .

وعاد الأصحاب بعدئذ إلى إتمام أعمالهم ففاجأوا البلاد بدخول الأمير منصوراً وقبضوا على الخائنين . وتتابعت الحوادث والمشاهد بمثل سرعة الصور المتحركة ، منها : موكب الملك - المدافع تقصف والطبول تدوي - هيجان بغداد وأفراحها - فوز الحق والصلاح وإنهيار الغدر والطلاح - مجيء العروس في موكب بديع - المناداة بالممدوح خليفة وإجلاسه على « التخت » - أفراح - أنوار - أهازيج - زينات - شمس مجلوة - بدور منيرة - وفوق كل ذلك خطب وأشعار ! وبات العروسان يديران كؤوس المراد السكرية ويتداولان أقداح الوداد العبقريّة » .

وفي القصر أقيمت بالطبع حفلة « تشريفات » لمناسبة الجلوس المجيد

والزفاف السعيد . فتقاطر المهشون ، وتليت رقاع التهاني ، ووزعت الهدايا
من العروس على أرباب الدولة . وجادت قريحة الملك فأنبرى يخطب في
الجموع شاعراً ناثراً ، ويمتدح النواذب التي هذبته وعلمته الصبر والحكمة .
وهاكم أبياتاً من نظمه :

واشتاقني عـزي كـشوقـي للمـنى
مذ كنت ألقى لاعج اللوعات
قلدت سيف الصبر كي يجرأزه
أسطو على محن الزمان العاتـي
حتى قطعت به حبالـي محنـتي
وسلكت نهج الرشـد في طيـاتي
وأنا المقر بما جنيت ، وليس لي
عذر سوى أسفي على هـفـسـواتي
فلأشكرن شـدائداً لو لم تـكن
ما كنت أدري زلي لمـمـاتي



أدركني العياء في مراجعة هذه القصة المكتوبة بلغة « المقامات » ،
ذات الكناية والسجع الطويل ، غير أن مطالعتها ومطالعة أمثالها تتحتم على
الباحث عن مصدر التطور ، وهذا الفن بارقة للفن القصصي الحديث عندنا ،
ذلك الفن الذي ما زال في لغتنا جنيئاً ، ولم يبلغ قط عند العرب طور النضج
والقوة .

تاريخ الفن القصصي عند العرب يتلخص في سطور وجيزة . فقد نشأ

في القرن الأول للهجرة مستنداً إلى تاريخ الجاهلية ، وظل في نمو يقتبس من التاريخ ومن الخيال معاً حتى القرن الرابع . فجاء بتلك القصص أمثال « الجمهرة » و « عنرة » و « بكر وتغلب » و « شيان وكسرى أنوشروان » ، وغيرها من قصص الغرام مثل « مجنون ليلي » و « جميل بثينة » . وما إلى ذلك من عديد القصص التي اندمجت بعدئذ في كتاب « ألف ليلة وليلة » .

وقد ألف العرب كتباً لا أصل لها في الواقع إنما استمدت موضوعها من العلم الخيال والحكمة جميعاً . وربما كان أنفس تلك الكتب « أسرار الحكمة المشرقية » الذي روى ابن طفيل الأندلسي أنه لخصه عن كتاب كبير من وضع الرئيس ابن سينا حيث هذا الحكيم صور نشأة الإنسان وألح إلى نظرية التطور .

أما كتاب « ألف ليلة وليلة » فهو فارسي الأصل . وقد وضع أصله في القرن الرابع فتناولته أيادي النساخ بالإضافة والتحريف فكان كل منهم يزيد عليه وينقص فيه ما شاء ، وذلك حتى القرن العاشر .

ووقف الفن القصصي بجمود اللغة مدة ثلاثة قرون . فحكاية عائشة بعيوبها ورواسبها تجربة أولى في النزعة المتجددة ، لا سيما فيما يختص بالأدب النسائي . إذ لا علم لي بامرأة عربية اللغة وضعت قصة تامة قبل عائشة . فهي بتجربتها هذه من رواد المنهج الجديد .



والرواية بعيوبها ذات مغزى أخلاقي . لأن واضعتها جعلت سوء تربية المدحوخ وعجزه عن تمييز الصديق من العدو منشأ مصائبه . فقد رأى عدواً في من يحسن إرشاده ، ويعلمه كبح أهوائه ، وينبئه إلى واجباته ومسؤولياته .

وحسب صديقاً من حفز طيشه وغروره ، وملق منه الزهو والعجرفة ،
وشجعه على العبث بكرامة الناس وكرامته الشخصية . فعوقب بنتائج ضلاله .
ولكنه يوم ثاب واعترف بخطئه ، بعد أن أتمت المحن صقله وهيأته لمنصبه ،
عادت إليه حقوقه ومسراته وحقق جميع رغباته . ومن ثم اسم « نتائج
الأحوال » .

أما أن الحياة تتصرف معنا ، بني الإنسان ، على هذه الكيفية فقد يحدث
أحياناً ، ولكن نقيضه قد يحدث أيضاً . قد يتفق أن يعلو صوت الحق ،
وينتصر الصلاح ، فيظفر المرء بما هو له في حكم الطبيعة والقانون والكفاءة ،
وقد يثاب المرء عن الخير خيراً ، وعن التضحية كرامة . ولكن كم ذا يفوز
الشر ، ويغلب الظلم والخداع ، كم ذا يجار على صاحب الحق في جميع
القوانين البديهة والمشروعة ! وكم يتألب الناس على سحقه وإهلاكه ،
وما له من ذنب سوى الإخلاص والتفادي !

وما كان أعدل الدنيا وأنصف الدهر ، لو عومل كل بما يأتيه ، وكان
حقاً من نوع العمل .

على أنه لا مندوحة لنا عن الأخذ بالمبادئ الأخلاقية ونشرها . ولا بد
من تلقين النشء دروس الصدق والإستقامة والصلاح مهما عصفت حولها
الشرور والأكاذيب والمفاسد ، لأنه ينطبق على المبادئ الأخلاقية السامية
ما قاله قوله الجاحد في الألوهية : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب أن
نخترعه » !

أجل ، يجب أن نخترع الأخلاق السامية لو لم تكن موجودة . لأنها
من المواهب الفكرية والذهنية ، إنما هي لباب الفضل في الإنسانية ، وهي
التي لا يتغلب عليها مذهب سياسي ولا تدرك قواعدها ثورة اجتماعية ،

فعلى من يستطيع تأييدها ونشرها أن يفعل ، لئلا نذكرنا على الدوام بأن الدنيا
ذخيرة من أنفس ذخائر المثل الأعلى الذي لا يقتصر على جيل أو على فرد ،
بل تتعاون الجماعات والدهور على تمثيله وتحقيقه .

مرآة التأمل

الشائع أن « باحثة البادية » كانت أول مصرية عاجلت الموضوعات الاجتماعية ، وقد سبق أن أبدت هذه الفكرة قبل الإطلاع على نثر التيمورية . فاستدرك اليوم لأسجل الأسبقية لعائشة التي كتبت في هذه الموضوعات في صحف عصرها وفي « مرآة التأمل في الأمور » ، وهذا رسالة وجيزة في ١٦ صفحة من القطع الكبير . ليس لهذه الرسالة من تاريخ يوقتها ، إلا أن كاتبها ختمتها (على طريقة ذلك العهد) بامتداح لسمو الخديوي السابق ، عباس حلمي باشا ، فقد نشرت إذن بعد توليته ، أي بعد ١٨٩٢ ، وفي السنوات العشر الأخيرة من حياة التيمورية .

لغة هذه الرسالة ككل ما نثرت عائشة ، وهي لغة المقامات ذات السجع والتطويل ، وهي تستهلها بالشكوى وتفكر « لعلني أرى لسماء الصفو هلالاً ولعقد الأزمة إنحلالاً » .. ويظهر أنها عثرت على « إنحلال لعقد الأزمة » أو ما يشبه ذلك ، لأنها « فناداني زعيم الجسارة هلمي إلى مقصورة السلامة ، ولا تحذري الإنتقاد والملامة ، وعليك بإيضاح الدعوى » ...

وهنا قامت و « زعيم الجسارة » ذاك - ولعله صديق خيالي - بتخاطب حفل بالتفخيم المسجع شغل صفحتين اثنتين . فوصلنا أخيراً في أول الصفحة الرابعة إلى « إيضاح الدعوى » . وما هي سوى انقلاب الأدوار بين الرجال والنساء ، وتسرب الفساد إلى داخل الأسرة . وتفصيل ذلك عندها أن

جماعة من الشبان « غرهم الله بالغرور حتى إن كل إنسان هم بالاقتران من وضعيع ورفيع وخامل ونبیه ، كان كل بحثه عن الحلي والحلل والضياع والعقار ، لا عن النسب والتدين والعفة والوقار » . ذلك ليتمتع بما تمتلكه ربات الجمال » ... ويريح فكره من الأتعاب ويستغني عن الجهد في الإكتساب ، ويسلم الزمام للهوى ، مكثفياً « بتلك الثروة المستعارة ، وما بدري بأنه واقع في حبال الخسارة . فتحتاط به أقرانه » . « ويقوم جيش المدهنين بين يديه » ...

« ويظل الزوج بين هو وتبذير حتى ينفذ من يده الدينار والدرهم ، وإذ يعود إلى البيت تقابله الزوجة بالسخط والنفور ، ولا يلبث أن ينتقل النفوذ والسيطرة إليها ، لأن الزوج عاجز إلا عن القصف والتبذير. » « وحق الزوجية لا يتم إلا إذا كان كل واحد منهما يرعى الآخر فيما له وعليه . فعلى الزوج أن يقوم بكل حقوقها ومصالحها ، كما يجب عليها طاعته والإنقياد لأمره » . فإذا انقلب الرأس عقباً فكيف تستقيم الأمور ؟ وكيف « لا تلقي المرأة وشاح الحذر وترمي برقع الحياء » ؟

أتكون الزوجة صابرة كتوماً ، دفعاً للشماتة وحذراً من ذبوع الفضيحة ، « فدفنت هذا الويل بجذث قلبها الحزين الوهان » ؟ إلا أن الكتمان لا يداوي علة ، والتجلد لا يفثأ غلة ، بل تجذب في نفسها مادة الحياة و« بدلت القصور بالقبور » ! إذن فالبشرى للزوج الذي لا يرثي لئيم الأطفال ، « بل يأخذ من الميراث ما لقي وأبقى ويجعله صداقاً لمن يلقيها في أكفة الشقاء » .

أم تكون المرأة سليطة اللسان وإذ تضيق بالحياة ذرعاً تعمد إلى اللوم والمشاجرة ؟ إذن تبدأ حياة هي الجحيم ، إذ لا مقدرة للرجل على زجرها وإسكانها . فيهجر بيته إلى الحوانيت والحانات ، « وإذا أتى المنزل نام

في الحال خوفاً من المرافعة في القيل والقال .

فكيف تسكت النساء على ضياع شبابهن ونضارتهن وأموالهن وآمالهن في السعادة والهناء ؟ إن الحزن والأسى ليلهب قلوبهن ! فتمضي الواحدة منهن إلى الجارات مستجيبة من عذابها وكربها . فإذا هي وقعت على امرأة فاضلة تهون عليها الأمر صمتت لحين استئناف الأزمة الجديدة . أما إذا ساقها سوء الطالع إلى تلك الدور التي تبدل منها الصون والحصانة باسم الحرية العصرية ، فهناك تغريها من سفلت أخلاقها فتستسلم المرأة وتخرج عن جادة الحشمة . عندئذ يغار الزوج ويقوم بالتهديد والوعيد . ولكن كيف تعباً المرأة به وبكرامته وهو لم يعرف لنفسه واجبات ولم يقف شروده عند حد ؟

هذا منشأ الشقاء على ما يبدو للتيمورية . لذلك ناشدت الرجال في آخر الرسالة أن يصغوا إليها ، ورجت منهم « أن لا تنبذوا خطاب هذه الضعيفة ولا تقيسوه بأقوال النساء السخيفة » .

وقد لبى الرجال هذه الدعوة ، بداهة أو اختياراً . فالنقد الاجتماعي الذي سيعالجه قاسم أمين بحصافة ولوذعية ، قد سبقته التيمورية بهذه الدعوة إلى الإصلاح . لأن الكتاب الذي وضعه قاسم أمين بالفرنسية رداً على الدوق داركور صدر سنة ١٨٩٤ م وعقليته لم تتفتق فيه عن تلك الثورة النبيلة الكامنة التي شبت في كتابيه « تحرير المرأة » و« المرأة الجديدة » . وقد صدر الكتاب الأول سنة ١٨٩٨ م وصدر الآخر في ١٩٠٠ م .

لَا تَصْلَحُ الْعَائِلَاتُ إِلَّا بِزِينَةِ الْبَنَاتِ

يقول ابن أخي الشاعرة ، الأستاذ محمود تيمور ، ان التيمورية نشرت مقالات في جريدة « المؤيد » . وأرجح أن خير تلك المقالات أدرجتها زينب فواز في كتابها « الدر المنثور » وقالت أنها اقتبستها عن جريدة « الآداب » الصادرة يوم السبت الموافق ٩ جمادي الثانية سنة ١٣٠٦ الهجرية ، أي سنة ١٨٨٨ م ، قبل أن يكتب قاسم أمين في هذا الموضوع باثنتي عشرة سنة تقريباً .

أرجح أن هذه خير مقالاتها لأن عائشة كانت وزينت فواز على إتصال وائتلاف . وقد ترجمت زينب لعائشة في حياتها واستقت منها مصادر تلك الترجمة بما فيها نص مراسلتها ووردة اليازجي نظماً ونثراً . كما أنها صدرت كتاب « الدر المنثور » بخطاب من عائشة كله ثناء وتقريظ ، على طريقة يومها ، ولما أدرجت هذا المقال دون سواء فأكبر الظن أنها فعلت بإشارة التيمورية ، أو أنها فضلته على غيره نظراً لمحتوياته .

أنه لأثر نفيس حقاً ، لأنه بكر في لمس موضوع خطير . وخير ما تنتهي إليه مباحثنا اليوم ليس بأصدق نظراً ، ولا بأصوب حكماً مما جاءت به عائشة منذ ٣٧ عاماً^(١) .

(١) نود أن ننبه هنا إلى أن المرحوم رفاعة رافع الطهطاوي هو أول من دعا إلى نهضة المرأة المصرية وإلى تعليم البنات وتثقيفهن اسوة بالبنين وقد وضع كتاباً سنة ١٨٧٢ لتثقيف البنات والبنين سماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) . ودعا في هذا الكتاب إلى وجوب تعليم البنات وإعدادهن عن طريق التربية والتعليم . وقال في ذلك : « ينبغي صرف الهمّة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرّة الأزواج فتتلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ، ويصلحن لمشاركة الرجال في الكلام والرأي ، ولتتمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقاتها . فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه =

عنوان هذا المقال هو « لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات » : وكما أنها في « مرآة التأمل في الأمور » تجعل منشأ الشقاء في بحث الرجل عن الثروة ليسيء بعدئذ التصرف بها فيهدم بيته بيده ، فهي في هذا المقال تلوم المرأة على أسرافها في الزينة دون انتباه إلى واجباتها ، وترى في ذلك مبعث الخلل والفساد ، وتعجب « من مدنية تشفف بتزيين فتياتها بحلي مستعار ، وتستعين على إظهار جمالهن بزخرف المعادن والأحجار ، وتتخيل أنها زادت من بسطة في الحسن والدلال ، والحال أنها ألفت تلك الأحداث في أخذود الوبال ، لأنه لا يعد عليهن من تلك المستعارات إلا العجب والغرور المؤدي بهن إلى ساحات المباهاة والفجور. وذلك لكف بصيرتهن عن الإدراك وعدم علمهن نتائج الأحوال وعواقب الأمور ^(١) .

موضوع زينة المرأة قد يشغل كتاباً أو كتيباً لمن يريد أن يتناوله من وجهه المهم دون الإكتفاء بالإرشاد ، أو بالتهكم ، أو النقد الجارح ، لذلك ألقى هنا بكلمة فقط .

أعتقد أن من طبيعة وجود المرأة أن تكون جميلة ، كما أن من طبيعة وجود النوع الإنساني أن يكون ذكياً نشيطاً . وكما يصقل المرء ذكائه بالمعرفة والتجربة والإطلاع ، فكذلك تصقل المرأة جمالها بالزينة والأناقة والكياسة .

= أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالاهواء . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة . وبذا يكون رفاعة الطهطاوي قد سبق التيمورية وقاسم أمين إلى هذه الدعوة (رئيس التحرير) .

(١) للمؤلفة : قلماً ناقشت أراء عائشة في هذا الدرس لشعرها ونثرها وإنما اقتصر على إبراز أوجه خواطرها . ولولا ذلك لاتسع المجال للإسهاب فيما يشقي العائلات ويسعدها . ولئن علقت أحياناً على نظرية منها فلتعذر السكوت على ما يحتمله ذلك من إيهام وتأويل .

الفتاة معدة لتكون ربة منزل ، وام عائلة ، وسيدة مجلس زائرة ومزورة وليست معدة لتتروى في حياة الزهد والرهابية . فيجب أن تنشأ على ما أعدت له من إبهاج المنازل وتزيين المجتمعات ، وبث اللطف والأنس في كل ناحية تحل فيه . ولما كان عليها أن تهج برخامة صوتها ، وحلاوة ابتسامتها ، وظرف حديثها ، فعليها كذلك أن تروق النظر بحسن هندامها . فالعيب إذن ليس في ميل المرأة (والرجل كذلك) إلى الزينة ، ولكن في المغالاة بإرضاء ذلك الميل ، وعدم الخضوع لقواعد الذوق السليم في التصرف بمظهره . والغلو عيب في كل أمر ، وسقم الذوق نكبة دائمة .

وللتوفيق بين تنظيم الزينة والإقتصاد فيها فعلى الفتاة أن تتعودها منذ نعومة أظفارها . بعكس ما تجري عليه أكثر المدارس ، إن لم نقل كلها ، في تجريد البنات من كل حلية وإفهامهن أن الزينة لا تجوز إلا بعد الخروج من المدرسة ، فينلن حريتهن من هذه الوجهة متأخرات ، أي أن الحرية في الزينة تفاجئهن مفاجأة بدلاً من أن يتعودن شيئاً فشيئاً ، فيكون شأنهن عندئذ شأن من وجب عليه أن يربي نفسه تربية جديدة تناقض تربيته السابقة من كل وجه . ومن هنا عدم التوازن والإتران ، وعدم وضع الشيء في مكانه ، وإغراق في إسراف الوقت والدرهم ، والغلو في الأخذ بأهمية الزينة . ومن هنا زعم أكثر النساء بأنهن لا يتجملن أصلاً . والواقع أن أكثرهن زعماً وتنصلاً أوفرهن تبرجاً وتجملأً ، إلا اللائي يأبى التجمل أن يتناسب و « طرازهن » الطبيعي وشكلهن .

ولو شئت جميع الفتيات على إعتبار الزينة المعتدلة المعقولة الفنية جزءاً من ترتيب هندامهن على ما يناسب شكلهن وقالبهن بحكم الذوق والزي السائر ، لما أنفقن في سبيل ذلك وقتاً طويلاً ولا بدا ذلك فيهن تكلفاً وعملاً

مستثنى ، بل لاندماج في عاداتهن وصار طبيعياً . وإذا لما رأينا المرأة في كثير من العائلات الشرقية بأثواب رثة قدرة بين زوجها وأولادها ، بلا لياقة ولا حاسة فنية . حتى إذا استقبلت ضيوفاً أو خرجت للزيارات إرتدت أفخر الأثواب وإزدانت بأنفس الحلي ، فبدت في كل أولئك غريبة بطيئة الحركات مرتبكة السكنات ، وكأن كل جارحة فيها تنطق بأنها « مطقمة بزى الآحاد والأعياد » على نحو قول الفرنسيين .

لو درجت المرأة منذ الصغر على الزينة المعقولة لأدركت أن هذه الزينة جزء من جمالها وأنها تعالجها لنفسها لا للناس ، ولامتدت عنايتها تلك إلى مترها فلا تقصر ترتيبه وترتيبه على يوم الإستقبال في الغرف والردهات التي يراها الزائرون والزائرات ، في حين هي تبقى في سائر الأيام على أسوأ ما يكون من التشويش والإرتباك . ولامتدت تلك الأناقة غير المصطنعة إلى أفكارها ، إلى آرائها ، إلى عاداتها إلى نظرتها في الحياة . فالزينة الواحدة ، حتى وإن كانت خارجية ، تستطيع أن تتناول نواحي شتى ، كما أن العيب الواحد قد يهدم حياة بأسرها . ومواعظ المصلحين لم تجد نفعاً على طول الأجيال . لأن حب الجمال في الإنسان أعرق من أن يخنقه الإرشاد ، وليت الإرشاد ينقلب تحويلاً إلى الأخذ بالوسائل المغرية بتوقيت الزينة وتنظيمها .



طويلة حاشيتي هذه بعد كلام التيمورية ، ولكنها غير دخيلة ولا هي تافهة . فمن حق الجميل أن يطمع في المزيد ، ومن حق غير الجميل أن يقلل من دمايته ، ويسترها ، محاولاً إظهارها بالمظهر غير المستنكر .

ورغم إنكار الغلو في الزينة الفارغة ، فإن التيمورية ترى أن أعنف العتب يقع على الرجل - وباحثة البادية ستقول هذا القول فيما بعد - لأنه

القوي وفي وسعه النهوض بالمرأة إلى حيث تتسع مداركها فتصبح له شريكة .
فإذا بها تهتف :

« فيا رجال أوطاننا ! لم تركتموهن سدى » ؟ « وهن بين أناملكم
أطوع من قلم » ؟ ، « فعلام ترفعون أكف الحيرة عند الحاجة كالضال
المعنى ، وقد سخرتم بأمرهن وازدريتم باشتراكهن معكم في الأعمال
واستحسنتم انفرادكم في كل معنى ؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود » ؟
منذ خمس وثلاثين سنة طلبت عائشة اشتراك المرأة مع الرجل في الأعمال ،
ولم هذا الاشتراك ؟ لأنه طبيعي « من حكم باري السمات وموجد المخلوقات »
ولأنه الأساس الأصلي « لصيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين .
ولو أمكن الانفراد لخص عالم الأسرار إحداهما دون الآخر ، وهو الأفضل ،
ولم يفقره إلى ما هو دونه . فكان التأمل في هوى هذا الكون موجباً على الهيئة
الرجولية العناية بتعليم المرأة وتهذيبها لينالوا بذلك أرفع مجداً وأهنأ جد ،
ولتعتاض الفتيات عن قلق الجهل براحة العرفان » . أي ليقمن بواجبات
التدبير في منازلهن وفي شؤونهن ، ويأتين بالمطلوب من عطف ووقاية وحكمة
نحو نفوسهن وذويهن ، دون شعوزة ولا شرود عن الصواب .

إنها تقول بلغتها بالمساواة بين الرجل والمرأة ، تقول بذلك تصريحاً
لا تلميحاً : « إذ لو أمكن الانفراد للرجل لخصه الله بالوجود دون المرأة ،
فهما ضروريان كل منهما للآخر ، موجودان معاً تحت شمس واحدة
وأحكام واحدة ليأتي كل بقسطه من واجبات متعادلة » .

لقد قالت بهذا في الشرق ، ورأت أن يتساوى الرجل والمرأة وأن
يشتركا في الأعمال ، وهي محجوبة رهن جدران الخدر . ومتى ؟
في حين كان هذا يعد بدعة في أوروبا ، إذ لا يفوتنا أن لفظة « ذكر » لم يتفق

على حذفها من قوانين إنجلترا والإستعاضة عنها بلفظة « رجل » أو « أحد »
إلا منذ سنة ١٨٥٠ م . وكان ذلك مقدمة لتحرير المرأة عندهم من حيث
إدخالها في الإنسانية .



تنطوي التربية على فروض كثيرة وتحتل شتى الإيضاحات والتأويلات .
وعليها تحت قلم عائشة مزيد من الإيهام والمرونة . إلا أنها بقولها « تأديب
البنات وتهذيب العائلات » يغلب عليها وجوب تنشئة الفتاة لتكون أهلاً للسهر
على مصلحة الأسرة والقيام بالمطلوب في سبيل تقدمها وراحتها وهنائها .
لأن في حجرها تشب الأجيال ومن كان مهياً لإعداد الصلاح والعظماء
والنبلاء وجب أن يكون على عظمة ونبل وصلاح .

والمساواة ؟ هي معنى عارض في كلام عائشة ، برغم أهميته بالنسبة
لوقت الذي ورد فيه . أما اليوم فقد شاعت هذه الكلمة وذاع معناها لدى
من يفهمه ولدى من يزعم أنه يفهمه . ولكن أكثرية الرجال ، حتى المتعلم
الراقي منهم ، تكهروهم هذه الكلمة وتثير سخطهم وتهكمهم ، وهم لا يقرون
منها ما يقرون إلا بشروط من الحصر والتقييد .

وأرى أن في إنكار المساواة على المرأة تكريماً لها ، أية كانت الصيغة
واللهجة المعبر بها عن ذلك الإنكار ، لعل الرجل الذي يجهد كفاح الحياة
لا يريد ذلك الكفاح للمرأة ، طامعاً في ادخارها للراحة والهناء والرخاء
والمواساة . بل هو دليل على محبته المتلونة الألوان ، وعلى احترامه ولو مسخه
أحياناً بشكل الإستخفاف . أذلك الإنكار محض أنانية كما يزعمون ؟
وماذا ترى لو كان ذلك ؟ ومتى كانت الحياة خالية من الأنانية ؟ وما أحب
أنانية أحبابنا إلينا ! أما الأنانية الممقوتة من القريب والغريب على السواء

فهي الأنانية التي تتورم على حسابنا ، ولا تجعل لحقوقنا في إحصائها قدراً وشأناً . ومن هنا منشأ كل ثورة ، وكل فتنة ، وكل ظلم .

إن المرأة التي تنال عوضاً عن تأدية واجباتها عطفاً وحباً ، لا تثور ولا تشكو حتى ولو عسرتها المسؤولية ، وإنما هي المرأة المظلومة من ناحية العواطف ومن ناحية المعاملة ، التي تضج وتلج . يطلبون منها ألف ألف واجب ، ويقيدون بألف ألف قيد ، ويرهقونها بألف ألف وقر ، ومقابل ذلك ، ماذا ؟ مقابل ذلك لا رعاية ، ولا عطف ، ولا محبة ، حتى ولا مجاملة . مقابل ذلك أحياناً ، لوم وتفنيدي ، إذن لماذا تحتمل ؟ وفي سبيل أية غاية هي تحيا ؟ لقد سن لها المجتمع ، دون الرجل قانوناً للعواطف والأفكار والأعمال ، وركز لها ضمن حدود الأسرة هناء القلب ومسرات الحنان . ولم تقدر تلك القوانين أن ما فرضته لها من رضى قد لا يتحقق ، في حين تظل المرأة مرغمة على الواجبات الباهظة . وتظل تعذبها لاجابة العيش ووخز الحاجة . وليست كل أسرة لتقوم بتلك الحاجة المحسوسة نحو أفرادها ، ولا كل رجل ، زوجاً كان أو أباً ، أو أخاً ، ليعلم ويدرك أن الرجولة لا تقوم برأس العائلة وبالأمر والنهي ، بل بتأدية واجبات ييسرها لها المجتمع قدر الإمكان ويجعلها على المرأة أعسر ما تكون .

قيود واستدراكات وحدود من كل جهة في حياة المرأة . وعلى هذه المخلوقة الضعيفة أن تدعن لها جميعاً وأن ترى فيها الفضل والبر والكمال ، وأن تأتي بما لا ينجل أن يهمله الرجل شرط أن تظل ضمن حدود الفضل والبر والكمال . وللرجل كل الحرية في الحلال والحرام ، في الممنوع وفي الجائز . أيمكن أن يسكت على هذا الجور قلب يحس وينبض ؟ انه ليتأكله الجوى ويكظم عذابه إلى حين ، ولكن لا بد أن يتفجر عن الأسى يوماً ، لا سيما إذا رأى أن لا منفعة له من جهاده وأن خيوط حياته تبلى عبثاً ليحني ثمرة تعب من ليس لذلك أهلاً .

واهاً ، أيها الرجال الفضلاء ، أنتم الذين تسعدون النساء العائشات
تحت رعايتكم ، لو علمتم كل ما تكنه الدعوة إلى المساواة من نصال
مغمدة في القلوب !

لو علمتم ذلك لعملتم - ليس على نقض معاني المساواة كما تفعلون
أحياناً - بل على تعديل القوانين الجائرة وجعلها صالحة لجميع أفراد المجتمع .

الفهرست جائستہ ٲيمور

٩	مقدمة
الفصل الأول	
١١	البارق في الظلام
الفصل الثاني	
٢١	عصر الشاعرة
٢٣	الحياة الفكرية
٣٤	الحياة المنزلية
الفصل الثالث	
٤١	النشأة والزواج
٤٣	نشأة الشاعرة
٥٧	بعد الزواج
الفصل الرابع	
٦٧	بيئة الشاعرة
٦٩	بيئتها الاجتماعية
٧٩	بيئتها المعنوية

حبها لاسمها ٩٢

الفصل الخامس

شاعرة بثلاث لغات ٩٥

عبقريتها اللغوية ٩٧

شعر المجاملة ١٠٢

شعرها العائلي ١٠٨

الفصل السادس

في الغزل . والأخلاق . والدين ١٢١

شعرها الغزلي ١٢٣

شعرها الأخلاقي والديني ١٣٥

الفصل السابع

نثرها - ١ - كتاب «نتائج الأحوال» - ٢ - كتاب «مرآة

التأمل في الأمور» ١٤٩

نتائج الأحوال ١٥١

مرآة التأمل ١٦٢

لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات ١٦٥

مؤلفات مي زياده

أدب - قصة - نقد - اجتماع - تاريخ - عمران - فن - حضارة

بأحشة الباردة	كلمات وإشارات جـ
وردة اليازجي	كلمات وإشارات جـ
عائشة تيمور	ظلمات وأشعة
بين الجرز والمد	الصحائف
المساواة	سوانح فتاة
غاية الحياة	ابتسامات وذموم
الحب في العذاب	رجوع الموجبة

To: www.al-mostafa.com